

دولة بني صالح في نامينا

بالمغرب الأقصى

(١٢٥ - ٤٥٥ هـ / ٧٤٣ - ١٠٦٣ م)

ركنه
رجب محمد عبد الحكيم

استاذ التاريخ الاسلامي المساعد
معهد البحوث والدراسات الافريقية
جامعة القاهرة

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢٠٠٠ م - ١٩٩٩ م
ت ٩٠٤٦٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

نعرض بالحديث في هذا الكتاب الى دولة صغيرة قامت في أحد أقاليم بلاد المغرب الأقصى على يد أحد قواد البربر البارزين ، وهو طريف بن مالك . وطريف هذا كان أحد قواد موسى بن نصير ، شارك معه في فتح بلاد المغرب الأقصى ثم شارك أيضا في فتح بلاد الأندلس . واستطاع طريف أن يضع يده بعد انتهاء فتح هذه البلاد بأكثر من ربع قرن من الزمن على منطقة هامة في قلب بلاد المغرب الأقصى تعرف « بأقليم تامسنا » وأقام فيها مملكة له ولذريته من بعده . وقد ورثه في حكمها أولا ابنه صالح الذي يعتبر هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة ، ولذلك نسبت اليه وحملت اسمه ، خاصة وأخذ الحكم بعده استقر في ذريته وحده دون باقي اخوته .

وقد امتد العمر بهذه الدولة الى أكثر من ثلاثة قرون وكانت أسبق في الميلاد من أى دولة عربية أو بربرية قامت في بلاد المغرب الأقصى مستقلة عن دولة الخلافة الأموية أو العباسية ، إذ أن ميلاد هذه الدولة كان في عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م على يد طريف بن مالك ، واستمر بنو صالح بن طريف وذريته يحكمونها واحدا اثر الآخر في شكل نظام حكم وراثي يتوارثه الأبناء عن الآباء حتى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م حينما دهمتهم جيوش أعدائهم من الصنهاجيين حيث اقتصرت عليهم وقتلت ملكهم ، وكان لذلك أثره في تاريخ هذه الدولة فلم نعد نسمع عن ملوكهم الا حينما جاء المرابطون وقتلوا آخر هؤلاء الملوك وهو أبو حفص عبد الله حوالي عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م .

ورغم طول الفترة التي حكم فيها بنو صالح منطقة تامسنا ، ورغم الدور السياسى الذى لعبوه في تاريخ هذه المنطقة وفي تاريخ المغرب

الأقصى بصفة عامة ، فان كتب التاريخ القديمة أهملتهم ولم يتناولهم بالذكر الا اثنان من الجغرافيين المسلمين ، أحدهما ابن حوقل (ت ٣٦٧ هـ / ١٩٧٧ م) ، وثانيهما هو البكرى (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) . ومع أنهما كانا معاصرين لفترة من عمر هذه الدولة ، الا أنهما تحدثا عنها وعن ملوكها فى صفحات لا تتعدى أصابع اليد الواحدة ، ولم يزد من أتى بعدهما من المؤرخين شيئا ذا بال .

فقد روى ابن عذارى (قرن ٧ هـ / ١٣ م) ما حكاه البكرى فى شيء من الاختصار ، أما ابن خلدون فقد استقى رواية البكرى كاملة واستكملها بحديثه عن نهاية دولة بنى صالح على يد الصنهاجيين والزفاتيين والمرابطين . وإن كان ابن خلدون فى هذا المقام لم يعطنا تفصيلات كثيرة وواضحة حتى جاء الحسن الوزان فى بداية القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد وأعطاها رواية فريدة تبين كيفية نهاية هذه الدولة على يد المرابطين .

فالمعلومات عن هذه الدولة شحيحة وقليلة ، ولذلك فان كتب التاريخ الحديثة والمعاصرة لم تشر اليها حتى مجرد اشارة ربما لهذا السبب ، وربما استخفافا بشأها فهي دولة أو دويلة صغيرة ، وربما نتيجة لما ذكره ابن حوقل والبكرى عن المذهب الذى اتبعته هذه الدولة ، مما جعل المؤرخين قدامى ومحدثين يحجبون احكاما تاما عن ذكرها والتعرض لها فيما عدا ما ذكره ابن عذارى وابن خلدون فقللا عن ابن حوقل والبكرى .

ذلك أن هذين الجغرافيين المسلمين ذكرا أن هذه الدولة اتبعت مذهبها اعتباره دينا جديدا ووصماه ووصما أصحابه من بنى صالح ودولتهم بالكفر والضلالة ، مما جعل المؤرخين على مدار عصور التاريخ الاسلامى ينفرون من هذه الدولة فأهملوها الإهمال كله .

وعلى ذلك فإن أماننا فى حديثنا عن هذه الدولة موضوعان رئيسيان : الموضوع الأول هو الدور السياسى الذى قام به بنو صالح الذين تزعموا هذه الدولة وقادوها ، والموضوع الثانى هو الديانة أو المذهب الذى اتبعوه ، وهل كان خروجاً على الاسلام أم أنه كان أحد المذاهب الاسلامية المتطرفة التى شهدتها هذه البلاد ؟

وقبل أن نقاش هذين الموضوعين لا بد أولاً أن نعرض بالحديث للاطار الجغرافى أو المكان الذى قامت فيه هذه الدولة ، أين يقع ، ما هى حدوده ، وما أهمية موقعه ، ومن هم سكانه ، وكيف تم فتحه على يد العرب وكيف اعتنق هؤلاء السكان الاسلام ؟

ذلك أن اقليم تلمنسنا الذى قامت فيه هذه الدولة ارتبط بالاسلام منذ أن وصل الاسلام الى هذه البلاد ، وقام أهله بدور سياسى هام لا يمكن اغفاله ، ففى ذكره استكمال لجهود البربر فى اقامة الدول المستقلة التى كانت دولة بنى صالح ، وكما أشرنا تقف على رأسها ، كما أن الحديث عن هذه الدولة وعن مذهبها الدينى الذى اعتنقته فيه لمأطلة للثام الذى حجب حقيقة هذا المذهب عن الناس كل هذه العصور الطويلة من الزمن .

المؤلف

(١)

الاطار الجغرافى لدولة بنى صالح فى اقليم تامسنا

تمتع اقليم تامسنا بموقع جغرافى هام ، وحتى نعرف هذا الموقع ، ونعرف أهميته لا بد أن نشير أولا الى الأقاليم التى انقسمت اليها بلاد المغرب الأقصى لنرى موقع اقليم تامسنا من هذه الأقاليم .

وفى هذا الصدد نرى ابن خرداذبة (ت حوالى ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) قد قسم المناطق السهلية التى تقع بين جبال أطلس والساحل المطل على المحيط الأطلسى من بلاد المغرب الأقصى الى أربع مناطق عرضية متتالية من الشمال الى الجنوب ، أو الى أربعة أقاليم كبرى هى اقليم طنجة ، وخلفه على الساحل يقع اقليم السوس الأدنى ثم منطقة قدرها ابن خرداذبة بمسيرة نيف وعشرين يوما وتشتمل على اقليم ذكالة واطليم حاحا واطليم مراکش ، يليها جنوب الاقليم الرابع وهو السوس الأقصى (١) .

ويقول الاصطخرى (ت قبل ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) عن الاقليم الأول وهو طنجة أنه « كورة عظيمة تحيط بمدن وقرى وبواد للبربر كثيرة ، ومدينتها العظمى التى هى القصبة تسمى فاس » (٢) ، ثم أشار الى السوس الأقصى وقال ان السوس الأقصى هو اسم المدينة إلا أنها كورة عظيمة ذات مدن وقرى وسعة وخصب وتحيف بها طوائف من البربر (٣) . ولم يشر الى السوس الأدنى ، مما يدل على أنه أدمج هذا الاقليم فى اقليم طنجة الذى جعله بمتد ليشمل مدينة فاس حتى انه سمي

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد ، بدون تاريخ ، ص ٨٩
(٢) الاصطخرى : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، وزارة الثقافة والتراث القومى ، سلسلة تراثنا ، مصر ، سنة ١٩٦١ ص ٢٤
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٤

الأدارسة الذين بنوا هذه المدينة في عام ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م^(٤) واتخذوها عاصمة لهم باسم ملوك طنجة^(٥) .

وقد جرى على فحجه من أتى بعده من الجغرافيين حيث أشار المقدسى (ت ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م) إلى كورة فاس وسماها السوس الأدنى وجعلها تشتمل على المدين والنواحي التي تقع في طنجة وإقليم فاس ، ثم أشار بعد ذلك إلى السوس الأقصى^(٦) .

فاذا أخذنا بتقسيم ابن خرداذبة وهو أقدم الجغرافيين الذين تحدثوا عن هذه المنطقة من بلاد المغرب ، فإن تامسنا هي الإقليم الثاني الذي سماه كل من البلاذرى وابن خرداذبة باسم بلاد السوس الأدنى^(٧) ، وتابعهما بعد ذلك يضع قرون ابن عذارى الذي عاش في القرن

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٧

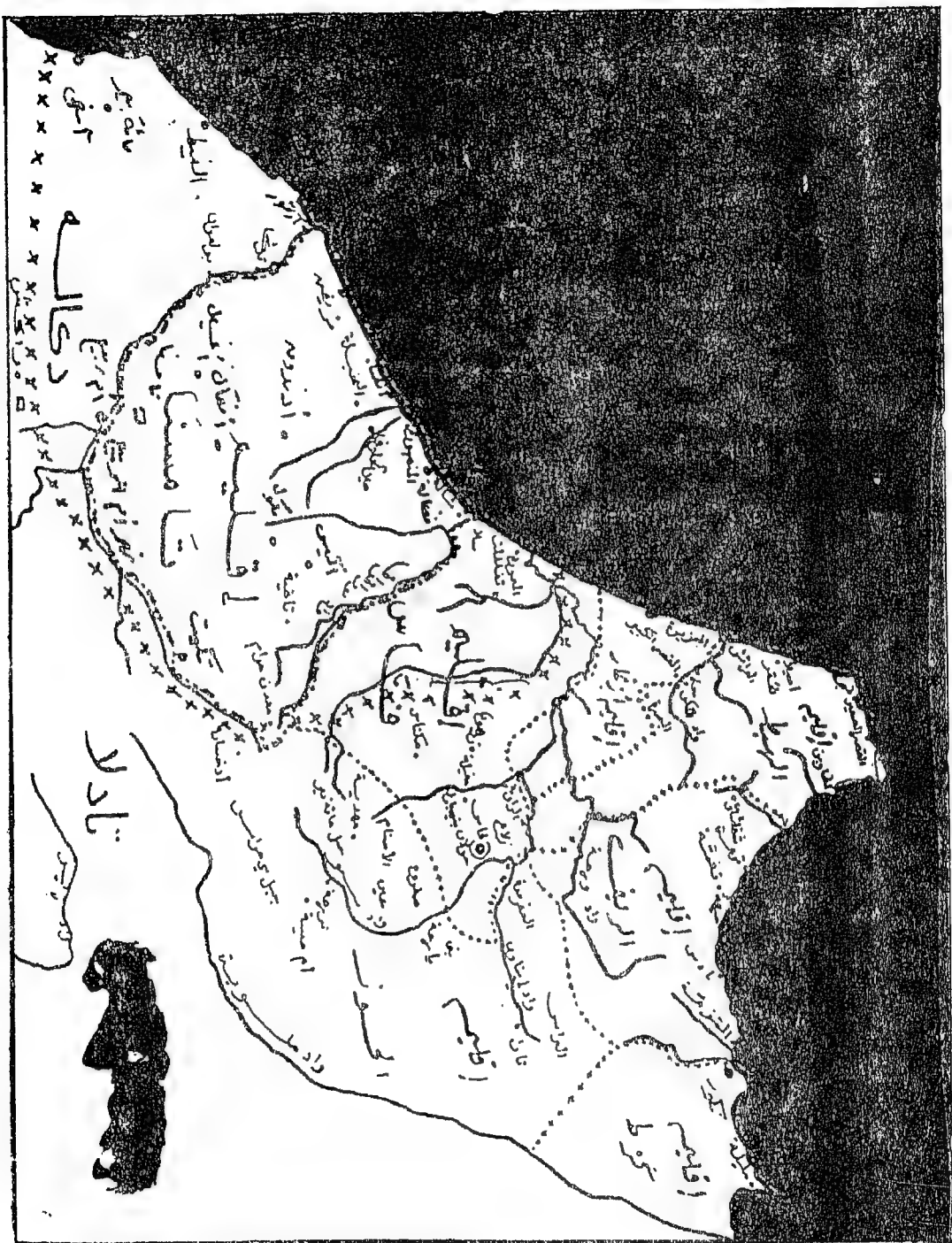
(٥) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، دار احياء التراث العربى ، بيروت ، سنة ١٩٨٧ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥

يبدو أن التقسيم الذى أشار إليه كل من الاصطخرى والمقدسى هو التقسيم الذى صار معمولاً به حتى زمن الحسن الوزان الذى قسم بلاد المغرب الأقصى إلى مملكتين هما مملكة فاس ومملكة مراكش ويفضل بينهما وادى أم الربيع الذى ينبع من جبال أطلس ويصب في المحيط الأطلسى . وكان السوس عنده هو النصف الجنوبى من مملكة فاس ، والسوس الأقصى هو النصف الجنوبى من مملكة مراكش . وهكذا أصبحت الأقاليم الأربعة التى انقسمت إليها المناطق السهلية التى تطل على المحيط الأطلسى والتى تبدأ من طنجة حتى أقصى الجنوب اقليمين اثنين فقط سماها الحسن الوزان باسم مملكتين وهى مملكة فاس ومملكة مراكش ، وكان إقليم تامسنا فى أيامه أحد أقاليم مملكة فاس السبعة .

انظر ، الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، جزءان فى مجلد ، ترجمة محمد حجي ، محمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، الشركة المغربية للنashرين المتحدنين ، الرباط ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٨٣ ، ص ٩٤ ، ٩٥ ، ١٩٢ ، ١٩٣

(٧) البلاذرى : فتوح البلدان ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣ ، ص ٢٢٦ ، ابن خرداذبة : نفس المصدر ، ص ٨٩



-x-x-x- حدود اقليم تامنا .
 x x x x x حدود دولة بني صالح في أقصى اتساعها .
 المصدر : الحسن الوزان : وصف افريقيا ج ١ ص ١٨٦ (بتصرف) .

السابع للهجرة حيث ذكر أن « تامسنا يقال لها أيضا بلاد السوس الأدنى »^(٨) واعتبرها مملكة مستقلة ضمن الممالك الثلاث المستقلة التي قسم إليها بلاد المغرب الأقصى وهي مملكة فاس حيث يحكم الأدارسة ، ومملكة تامسنا حيث يحكم بنو صالح بن طريف ، ومملكة سجلماسة حيث يحكم بنو واسول الصفريون^(٩) .

وتنتيجة للتغيرات السياسية التي حدثت بعد ذلك فقد أصبحت تامسنا أو بلاد السوس الأدنى جزءا من مملكة فاس فيما تلى ذلك من عصور^(١٠) ، وكانت حدودها في تلك العصور وكذلك في العصور الأولى التي ظهرت فيها دولة بنى صالح واضحة . ذلك أنها كانت تنحصر بين نهر أبي الرقراق في الشمال ونهر أم الربيع في الجنوب ، وبين المحيط الأطلسي في الغرب وجبال الأطلس في الشرق^(١١) وذلك بالمخالفة لوضع هذه الجهات التي بينها الحسن الوزان وكان غير دقيق في وضعها^(١٢) . وقد قدر الحسن الوزان طول هذه الرقعة من الأرض بشماتين ميلا أو حوالي ١٢٦ كيلو مترا بين نهر أبي الرقراق وأم الربيع ، وقدر عرضها بستين ميلا أو حوالي ٩٦ كيلو مترا بين جبال الأطلس والمحيط^(١٣) .

وقد جعل ابن حوقل والحسن الوزان بداية هذا الاقليم مدينة سلا التي تقع على ساحل المحيط الأطلسي عند مصب نهر أبي الرقراق ، ونهايته عند مدينة أزموور التي تقع جنوب مصب نهر أم الربيع^(١٤) .

(٨) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق لولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٨٣ ، ج ١ ص ٥ ، ٢١٦ .

(٩) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(١٠) الحسن الوزان ، نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩٤ .

(١١) انظر الخريطة ص ١١ .

(١٢) وصف إفريقيا ، ج ١ ص ١٩٤ .

(١٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٤ .

(١٤) ابن حوقل : صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ،

سنة ١٩٧٩ ، ص ٨٢ ، الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ٩٤ .

ويبدو أن اقليم تامسنا كان في العصور الأولى للإسلام وفي عهد بنى صالح أوسع من ذلك بكثير ، ربما بسبب قوتهم ونفوذهم السياسى الذى امتد جنوبا حتى مدينة آسفى^(١٥) ، وشمالا حتى وادى بهت^(١٦) ، وشرقا حتى جبال درن التى تعرف عادة باسم جبال الأطلس^(١٧) .

ومهما كان امتداد هذا الاقليم اتساعا أو انكماشاً ، ومهما صغرت مساحته أو كبرت ، فإن موقعه على هذا النحو يدل على مدى أهميته البالغة ، وعلى أنه من يسيطر عليه يستطيع أن يتحكم فى بقية الأقاليم المحيطة به ، فهو فى الواقع يعتبر أهم اقليم فى بلاد المغرب الأقصى من حيث الموقع ، كما أنه يمثل القلب بالنسبة لهذه البلاد ، ولذلك وصفه أحد الجغرافيين القدامى بقوله انه « فى الحقيقة زهرة هذه الناحية كلها »^(١٨) .

ولذلك وقعت فيه أو بالقرب منه عواصم المغرب الأقصى المشهورة . فمدينة فاس التى بناها الإدراة فى عام ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م واتخذوها عاصمة لهم^(١٩) كانت تقع بالقرب منه من ناحية الشمال ، ومدينة مراكش التى بناها المرابطون فى عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وكانت عاصمة دولتهم^(٢٠) كانت تقع أيضا بالقرب منه من ناحية الجنوب ، ومدينة

(١٥) ابن خلدون : تاريخه ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج ٦ ص ٢٠٧

(١٦) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر ، سنة ١٩١١ ، ص ١٣٦

(١٧) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٥

(١٨) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩٤

(١٩) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٣

(٢٠) المراكشى : تاريخ الأندلس المسمى بالمعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، مصر ، الطبعة الأولى سنة ١٩١٤ ، ص ٢٠٣ ، السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، القاهرة سنة ١٨٩٤ ج ١ ص ١٠٧

الرباط التي بدأ الموحدون في بنائها عام ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م وكانت عاصمة لهم^(٢١) ، كانت تقع في نفس اقليم تامسنا في الجزء الشمالي منه ، مما يدل على الموقع الاستراتيجي الهام الذي ميز هذا الاقليم عن غيره من أقاليم بلاد المغرب الأقصى .

ومع أهمية اقليم تامسنا فقد سكنه العديد من قبائل البربر وخاصة مصودة حيث يقول ابن عذارى أن بلاد تامسنا هي بلاد المصامدة^(٢٢) . وكان من أشهر قبائل المصامدة التي سكنت تامسنا قبيلة برغواطة^(٢٣) ، كما سكنته أيضا قبائل من زفاته^(٢٤) وصنهاجة وهوارة^(٢٥) ومطباطة^(٢٦) . وكانت الزعامة على هذه القبائل في تامسنا لبرغواطة^(٢٧) . وكانت هذه القبائل تدين بالوثنية والمجوسية واليهودية والنصرانية^(٢٨) ، وسرعان ما تحولت الى الاسلام بعد فتح العرب لهذا الاقليم . فكيف تم هذا الفتح وكيف تحول أهل هذا الاقليم الى الاسلام ؟ والاجابة عن هذين السؤالين سوف تفيدها كثيرا عند مناقشة المذهب الذي اتبعته الأسرة الحاكمة البرغواطية واتبعة أيضا كثير من أهل تامسنا .

-
- (٢١) ابن سعيد المغربي : بسط الأرض ، تطوان سنة ١٩٥٨ ، ص ٧٢ ، الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٦
(٢٢) ابن حزم : جبهة انساب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٩٨٣ ، ص ٥٠٠ ، ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٨٢ ، البكري : نفس المصدر ، ص ١٤٠ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٧ ، ٢١٠
(٢٤) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ١٠٢ ، ١٠٣
(٢٥) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٧
(٢٦) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٦٦
(٢٧) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧
(٢٨) البكري : نفس المصدر ، ص ١٦٠ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٢ ، ١١٦ ، الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ٦٧ ، الجزنائي : زهرة الاس في بناء مدينة فاس ، الجزائر سنة ١٩٢٢ ، ص ١٠

(٢)

فتح بلاد تامسنا وتحول أهلها إلى الاسلام

كأن أول لقاء لبلاد تامسنا مع العرب والاسلام عند قدوم الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري إلى هذه البلاد في عام ٦٢ هـ / ٦٨١ م . فقد ذكر البلاذري أن عقبة غزا السوس الأدنى الذي يقع خلف طنجة^(١) ، وسبقت الإشارة إلى أن السوس الأدنى هو بلاد تامسنا^(٢) . وقد صال عقبة وجال في هذه البلاد « لا يعرض له أحد ولا يقاتله »^(٣) ، ولم يعرف المصامدة غيره^(٤) ، وكان المصامدة يشكلون معظم سكان هذه المنطقة كما سبق القول .

وقد تمكن عقبة من هزيمتهم ومطاردتهم حتى درعة^(٥) ، ووصل إلى السوس الأقصى وقاتل مسوفة من أهل اللثام التي تقع بلادها وراء هذا السوس . ولكن فتح هذه البلاد بصفة عامة لم يتم على يد عقبة ، إذ سرعان ما عاد أدراجه متخذاً طريقه إلى القيروان حيث تعرض له البربر في الطريق عند تهودة وانقضوا عليه وأحاطوا به وقتلوه في عام ٦٣ هـ / ٦٨٢ م الأسباب لا مجال لذكرها^(٦) .

وقد تم فتح تامسنا وكل بلاد المغرب الأقصى على يد قائد آخر هو

(١) البلاذري : نفس المصدر ، ص ٢٢٦ .

(٢) انظر ، ص ١٣

(٣) البلاذري : نفس المصدر ، ص ٢٢٦

(٤) ابن عذاري : نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٢

(٥) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، سنة ١٩٦١ ، ص ٣٨

(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ليدن ، سنة ١٩٢٠ .
ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٨٦ ، حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، سنة ١٩٨٦ م ، ص ٩٠ - ٩١ ، السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٣٩

موسى بن نصير ، وذلك فى عهد الوليد بن عبد الملك ، حيث تمكن هذا القائد من الزحف على طنجة فى عام ٨٩ هـ / ٧٠٨ م ، وهو أول من نزلها من القواد واختط فيها للمسلمين ودان له بربرها من البتر والبرانس بالطاعة ، و انتهت خيله الى السوس الأدنى (تامسنا) فهزم سكانها من البربر المصامدة وسبى بعضهم وأخذ رهائتهم ودافوا له بالطاعة ، وولى عليهم واليا أحسن السيرة فيهم وأخذ صدقاتهم وأموال زكاتهم ، ثم عزله عنها وولاهها طارق بن زياد بالاضافة الى طنجة ، وانصرف موسى عائدا الى القيروان^(٧) ، وأوكل مهمة استكمال فتح بقية بلاد المغرب الأقصى الى ابنه وقواده ، فتمكنوا من القيام بهذه المهمة وفتحوا درعة وصحراء تافيلالت والسوس الأقصى^(٨) ، ودافت كل هذه البلاد لموسى بالطاعة ولم تستعص عليه الا مدينة سبتة لمناعتها وبوصول الامدادات اليها من أسبانيا القوطية عن طريق البحر^(٩) .

ومع هذه الفتوحات التى بدأت بعقبة بن قافع الفهري و انتهت بموسى بن نصير ، بدأ الاسلام ينتشر فى بلاد تامسنا والمغرب الأقصى بصفة عامة . ذلك أن هذين القائدين وغيرهما من قواد المسلمين لم يكن يهمهم الا نشر الاسلام والدعوة اليه قبل أى اعتبار آخر ، فلم يكن الفتح غرضا فى حد ذاته ، وانما كان وسيلة لازالة العقبات التى كانت تعترض طريق الدعوة ، ولذلك كان الناس يلغون أولا الى الاسلام ثم الى دفع الجزية ، فاذا رفضوا كان لا بد من قتالهم .

وقد اتبع عقبة بن نافع الفهري هذه السياسة^(١٠) ودعمها بانشاءه المساجد فى البلاد التى كان يفتحها ، اذ كان لا يترك مدينة فتحها

(٧) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٢٨ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٨٧ - ١٨٨

(٨) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٨٧

(٩) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص ٤٦ - ٤٧

(١٠) ابن عدارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٨

أو اقليمًا وصل إليه إلا وترك فيه مسجدًا بناءً قبل مغادرته لهذا الاقليم أو لتلك المدينة . والمثال على ذلك مدينة نفيس التي كان أكثر أهلها من مصبوذة ، فقد فتحها وبنى فيها مسجدًا كان موجودًا حتى عصر البكري^(١١) ، كما أنه بنى مسجدًا آخر في مدينة إيجلى بالسوس^(١٢) ، ومسجدًا ثالثًا بمدينة درعة ، ورابعًا بالسوس الأقصى^(١٣) ، وترك بعض أصحابه يعلمون البربر القرآن والإسلام ، منهم شاكر الذي بنى رباطًا حمل اسمه فصار يعرف باسم رباط شاكر حتى اليوم . وقد انتشر الإسلام بين المصابدة الذين كانوا يكونون أغلبية سكان تامسنا نتيجة لهذه السياسة حتى قال ابن عذارى « إن أكثرهم أسلموا طوعا على يديه »^(١٤) .

وقد اتبع موسى بن نصير نفس سياسة عقبة في نشر الإسلام في بلاد تامسنا والمغرب الأقصى بصفة عامة ، واتبع أسلوبًا جديدًا في جذب البربر إلى العرب والإسلام ، فجند منهم الكثير في جيشه ، واتخذ منهم موظفين في إدارة البلاد ، مما دفع كثيرا منهم إلى اعتناق الإسلام . يضاف إلى ذلك أنه كلف قواده وجنده بالقيام بمهمة الدعوة إلى الإسلام بين البربر . ويذكر الرقيق القيرواني كما يذكر ابن عذارى في هذا الصدد أنه ترك سبعة عشر رجلا من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام ، وأمر العرب قبل مغادرته طنجة والسوس الأدنى « أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين »^(١٥) .

وقد استمر مولاه طارق بن زياد الذي تركه موسى في حكم طنجة وما والاها من بلاد السوس الأدنى في اتباع هذه السياسة منذ أن تولى

(١١) البكري : نفس المصدر ، ص ١٦٠

(١٢) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٧

(١٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧ ، ٢٨

(١٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٢

(١٥) الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقيا والمغرب ، تونس ، بدون

تاريخ ، ص ٦٩ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٢

حكمها في عام ٨٥ هـ / ٧٠٤ م حتى عام ٩٢ هـ / ٧١٠ م ، وهو العام الذي دخل فيه الأندلس فاتحاً لها بمن معه من البربر الذين بلغ عددهم اثني عشر ألفاً^(١٦) والذين كان معظمهم بطبيعة الحال من البلاد التي كانت تحت حكم طارق بن زياد ، مما يدل على انتشار الإسلام بين بربر السوس الأدنى (تامسنا) ، ويدل على نجاح موسى بن نصير في نشر الإسلام بين بربر المغرب الأقصى النجاح كله .

ويذكر ابن عذارى أنه في هذا التاريخ ، أي في عهد موسى بن نصير « تم إسلام أهل المغرب الأقصى وحولوا المساجد التي كان بناها المشركون إلى القبلة ، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات ، وفيها نصب مسجد أغمات هيلانة »^(١٧) التي تقع في أقصى بلاد المغرب الأقصى .

وهكذا سارت الدعوة الإسلامية جنباً إلى جنب مع الفتح الإسلامي ، وهكذا أصبح البربر من قادة الفتوحات الإسلامية ومن جنودها كالعرب سواء بسواء ، وكان فتح الأندلس وقيام البربر المسلمين بأوفر أعبائه عاملاً من عوامل مزج العرب بالبربر في رباط واحد ، بعد أن صاروا إخوة في الدين لا فرق بينهم في شيء^(١٨) .

وقد تلمعت حركة انتشار الإسلام وازدادت عمقا في عهد من أتى بعد ذلك من الخلفاء والحكام والولاة ، وخاصة في عهد عمر بن عبد العزيز بحيث لم يبدأ القرن الثاني للهجرة إلا وهذه البلاد قد أصبحت بلاداً إسلامية خالصة ، وكان الإسلام فيها أسرع في الانتشار منه في مصر رغم سهولة فتحها وصعوبة فتح بلاد المغرب .

(١٦) الحميري : صفة جزيرة الأندلس (منتخب من كتاب الروض المعطار) القاهرة سنة ١٩٣٧ ، ص ٩ ، مجهول : أخبار مجموعة : ص ١٧
(١٧) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٢ ، ٤٣
(١٨) محمود شيت خطاب : قادة فتح المغرب العربي ، دار الفتح والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦ ، ج ٢ ص ١٦٦

ولعل ذلك يرجع الى ظروف عديدة لا مجال للحديث عنها^(١٩) ، وإن كان من الواجب أن نشير الى جهود عمر بن عبد العزيز في هذا المجال .

فقد اختار هذا الخليفة الداعية ولايته على هذه البلاد وغيرها من الثقة الصلحاء^(٢٠) المشهود لهم بالنزاهة والاستقامة والاخلاص للدولة وللإسلام والعمل على نشره ، فكانوا دعاة قبل أن يكونوا حكاما أو ولاية ، وكانت افريقية وبلاد المغرب في حاجة الى مثل هذا النوع من الحكام ، وكان والي عمر بن عبد العزيز على هذه البلاد وهو اسماعيل بن عبيد الله^(٢١) وألما حسن السيرة وافر الحكمة مخلصا في الدعوة الى الاسلام ، وبمجرد توليته في المحرم من عام ١٠٠ هـ / ٧١٨ م أخذ يدعو البربر الى الاسلام حتى أسلم بقية البربر على يديه^(٢٢) ، « ولم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد الا أسلم »^(٢٣) .

وكان عمر بن عبد العزيز يدعم هذا العمل بإرسال الكتب الى البربر يدعوهم فيها الى الاسلام ، وكان اسماعيل يقوم بقراءتها عليهم في مختلف النواحي^(٢٤) ، وأتبع عمر هذا العمل بإرسال عشرة فقهاء من التابعين للغرض نفسه ، من أشهرهم أبو الجهم عبد الرحمن بن

(١٩) عن هذه الظروف ، انظر ، حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ١٤١ - ١٤٧
(٢٠) احمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٤ ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ، سنة ١٩٨٤ ، ص ١٣٠

(٢١) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢١٣ ويسمى هذا والي عند البلاذري ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ باسم اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم .

(٢٢) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢١٣ ، البلاذري : نفس المصدر ، ٢٢٩ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٨

(٢٣) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢١٣

(٢٤) البلاذري : نفس المصدر ، ص ٢٢٩

نافع ، وأبو مسعود سعد بن مسعود التجيبي ، وأبو عبد الرحمن الجبلي ،
واسماعيل بن عبيد الله الأنصاري المعروف بتاجر الله ، وموهب بن حي
المعافري ، وحيان بن أبي جبلة القرشي ، وأبو تمامة بكر بن سودة
الجزامي ، وأبو سعيد جعثل بن عاهان بن عمير ، وعبيد الله بن يزيد
المعافري ، بالإضافة إلى الوالي نفسه (٢٥) .

وقد انساب هؤلاء التابعون الدعاة بين البربر يدعونهم إلى
الإسلام وكانوا قوة صالحة ومعلمين مخلصين بارعين (٢٦) ، أقاموا
المساجد وجعلوها مدارس للإسلام يقصدها البربر من كافة أقاليمهم
حيث كانوا يأخذون عن هؤلاء التابعين ثم يعودون إلى بلادهم وقبائلهم
لتابعة الرسالة فيتولون وظائف الإمامة والقضاء ويعملون بدورهم على
نشر الإسلام وثقافته العربية (٢٧)

ويفضل جهود هؤلاء الدعاة من البربر المسلمين وجهود هؤلاء
التابعين وغيرهم من دعاة العرب ، تعلم المغاربة أصول الإسلام فقرأوا
القرآن وعرفوا اللغة العربية ، إذ كان أكثر أهل المغرب حتى ذلك
الوقت لا يعرفون الحلال من الحرام ، وكانت الخمر حلالا عندهم
حتى وصل هؤلاء التابعون والدعاة فبينوا تحريمها (٢٨) .

وقد يقول قائل إذا كانت الدعوة إلى الإسلام في هذه البلاد قديمة
منذ عهد عقبة بن نافع فلماذا قاوم البربر العرب الذين حملوا إليهم
دعوة هذا الدين ؟ والاجابة على ذلك تتمثل في أن البربر لم يعادوا

(٢٥) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٨ ، أحمد شلبي :
نفس المرجع ، ج ٤ ص ١٣٠ ، محمود شيت خطاب : نفس المرجع ،
ج ٢ ص ١٦٧

(٢٦) أحمد شلبي : نفس المرجع ، ج ٤ ص ١٣٠

(٢٧) حسن محمود : نفس المرجع ، ص ١٤٧

(٢٨) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٨ ، محمود شيت
خطاب : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٦٨

الاسلام فى أول الأمر ولم يقاوموه تلك المقاومة العنيفة التى استمرت حتى زمن موسى بن نصير الذى فتح بلاد المغرب الأقصى قرب نهاية الثمانينات من القرن الأول للهجرة الا لجهلهم بحقيقة هذا الدين وعدم احاطتهم بمحاسنه ومزاياه (٢٩) .

ولقد فطن لهذا الأمر الخلفاء والولاة من العرب بعد حين ، فرتبوا لهم الفقهاء والقراء يلقنونهم ويصرونهم بالاسلام فلما عرفوا كنهه واتبعوا لمزاياه وعرفوا حقيقته أصبحوا من أكبر دعاة وأعظم أنصاره حتى أنهم كما قلنا هم الذين فتحوا الأندلس وسهلوا طريقها للعرب ، وهم الذين اقتنصوا مجاهل افريقيا وحملوا الاسلام وثقافته الدينية الى ما يقع خلفهم من بلاد السودان كما هو معروف (٣٠) ، بعد أن غلب الاسلام عليهم وعلى بلادهم (٣١) ، وأصبحوا جميعا مسلمين منذ ولاية اسماعيل بن عبيد الله (٣٢) ، ودأبت هذه البلاد من برقة الى السوس للعرب (٣٣) ، وصار بعض الولاة يرسلون جيوشهم الى بلاد السودان لدعوة أهلها الى الاسلام مثل عبيد الله بن الحبحاب الذى كان واليا على افريقية والمغرب فى الفترة من ربيع الآخر عام ١١٦ هـ الى جمادى الأولى ١٢٣ هـ (مايو ٧٣٤ - ابريل ٧٤١ م) (٣٤) .

ورغم انتشار الاسلام على هذا النحو فى بلاد الغرب الأقصى ومنها اقليم تامسنا بطبيعة الحال ، الا أنه فيما يبدو كان للبيئة الطبيعية والجغرافية أثرها فى بقاء بعض الديانات السابقة على الاسلام فى

(٢٩) محمود شيت خطاب : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٧٥

(٣٠) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣١) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٢٩

(٣٢) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٨٨

(٣٣) أحمد شلبى : نفس المرجع ، ج ٤ ص ١٣١

(٣٤) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ص ٢١٧ ، البلاذرى : نفس

المصدر ص ٢٢٩

هذه البلاد ، مثل النصرانية واليهودية والمجوسية ، وهى الديانات التى كان يدين بها البربر قبل وصول دعوة الاسلام اليهم^(٣٥) . فقد كانت المسيحية واليهودية تنتشران بين بعض البربر فى المناطق الساحلية والسهلية فى المغرب الأقصى ، أما داخلية البلاد التى تكثرت فيها الشعاب الجبلية والهضاب العديدة والطبيعة الجغرافية المعقدة ، فقد كانت الكثرة الكثيرة فيها من السكان على الوثنية^(٣٦) .

ولذلك يبدو أن المقصود بالعبارات التى وردت عند المؤرخين المسلمين القدامى والتى تقول باسلام جميع البربر والتى أشرت اليها لا تقصد الا هؤلاء البربر الوثنيين الذين كانوا هم الغالبية بالنسبة الى اخوانهم من البربر الذين كانوا يعتنقون النصرانية واليهودية ، لأنه من المعروف أن النصرانية لم تنتشر الا فى المدن الساحلية والسهل الساحلى الذى كان يسيطر عليه الحكام الرومان والبيزنطيون ، أما داخلية البلاد فلم ينتشر فيها هذا الدين لأن النفوذ البيزنطى لم يتسرب اليها ، وظل الأهالى على حالتهم الأولى يعبدون الأوثان والأصنام والنار كالمجوس تماما^(٣٧) ، وهؤلاء هم الذين قصدهم المؤرخون المسلمون وقالوا عنهم انهم اعتنقوا الاسلام جميعا ، اذ أن عقيدتهم الوثنية لم تستطع الصمود أمام الدين الاسلامى الوافد فى قوته وعنفوانه^(٣٨) .

ومعنى ذلك أن غالبية السكان من البربر اعتنقت الاسلام وظهر ذلك واضحا منذ بداية القرن الثامى للهجرة ، أما أقليتهم من اليهود والنصارى فقد ظلوا على دينهم القديم . والدليل على ذلك أن بعض المؤرخين يشيرون الى وجود بقايا للمسيحية واليهودية فى بلاد المغرب

(٣٥) انظر ص ١٥

(٣٦) حسن محمود : نفس المرجع ص ١٤٢

(٣٧) المرجع السابق ، ص ١٤١

(٣٨) المرجع السابق ، ص ١٤٤

الأقصى فى عصر دولة الإدارة الذين تولوا حكم هذه البلاد منذ عام ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، أى فى الربع الأخير من القرن الثانى للهجرة .

وفى ذلك يقول ابن خلدون أن أول أمراء الإدارة ، وهو ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب (١٧٢ — ١٧٧ هـ / ٧٨٨ — ٧٩٣ م) قام بعد أن استتب له الأمر فى بلاد المغرب الأقصى بالزحف الى « البرابرة الذين كانوا بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية مثل قندلاوة (٣٩) » ، وبهلواة (٤٠) ومديونية ومازار ، وفتح تامسنا ومدينة شالة وتادلا ، وكان أكثرهم على دين اليهودية والنصرانية ، فأسلموا على يديه طوعا وكرها وهدم معاملتهم وحصولهم « (٤١) » .

ومعنى ذلك أن اسلام أهل تامسنا تم فى عهد هذا الأمير الاديسى ، وكذلك تم اسلام أهل منطقة فاس المجاورة لها فى عهد ابنه ادريس الثانى (١٧٧ — ٢١٣ هـ / ٧٨٣ — ٨٢٨ م) الذى قام بنشر الاسلام بين المجوس واليهود والنصارى الذين كانوا يقيمون فى المنطقة التى بنى فيها مدينة فاس ، اذ كان « موضع فاس لبنى بوغش وبنى الخير من زواغة » ، وكان فى بنى بوغش مجوس ويهود ونصارى موضع شيبوية منها بيت فار لمجوسهم ، وأسلموا كلهم على يده ، وكأنت بينهم فتن فبعث للإصلاح بينهم كاتبه أبا الحسن عبد الملك بن مالك الخزرجى ، ثم جاء الى فاس وشرع فى بنائها « (٤٢) » .

وبعد أن بنيت هذه المدينة فى عام ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م صارت قلعة العروبة والاسلام فى بلاد المغرب الأقصى حيث قام الإدارة منها بحركة

(٣٩) قندلاوة عند الاديسى . انظر : نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٤٦

(٤٠) بهلول عند الاديسى . انظر : نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٤٦

(٤١) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٢

(٤٢) المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٣

جهاد مقدس بقصد اتمام نشر الاسلام فى البلاد ومجاربة العقائد الشاذة والقضاء على بقايا اليهودية والنصرانية بين قبائل المغرب^(٤٣) . ومنذ ذلك الحين غلب الاسلام نهائيا على هذه البلاد وكتب له الفوز التام على الوثنية والنصرانية واليهودية ، وانتشرت الثقافة العربية الاسلامية بين الناس ، وصارت العربية لسانهم .

أما من نأى بنفسه عن مخالطة العرب والاتصال بهم واعتزل فى بادية أو شعاب جبلية أو فى أماكن كانت لهم وحدهم لا يشاركون فى سكانها غيرهم من العرب ، فقد ظلوا لا يستخدمون إلا اللغة البربرية وظلوا على هذا الحال حتى عصر الحسن الوزان الذى أشار الى أن أهل مدينة مراکش وبعض فواحيها لا يستعمل أهلها إلا هذه اللغة^(٤٤) ، وأن قليلا من غمارة وهوارة كانوا يتكلمون البربرية ، وإن كان معظمهم يتكلمون العربية إلا أنها عربية رديئة^(٤٥) . بينما كان سكان جميع المدن الواقعة على شاطئ البحر المتوسط والمحيط الأطلسى وفى السهول الممتدة الى جبال الأطلس ، يتكلمون لغة عربية فصيحة^(٤٦) .

أما سكان تامسنا بالذات فافهم وحتى عصر الحسن الوزان أى النصف الأول من القرن السادس عشر للميلاد فافهم كانوا « يتكلمون اللغة الافريقية ويتحدث بعضهم باللغة العربية لمجاورتهم للعرب وعلاقاتهم معهم »^(٤٧) .

(٤٣) الجزنائى : نفس المصدر ، ص ٩ ، ١٠ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٠ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، دار احياء التراث العربى ، الطبعة السابعة ١٩٦٤ ، ج ٢ ص ٢٢٦ ، محمد بن عبد القادر الجزائرى : تحفة الزائر فى تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ، دار اليقظة العربية ، الطبعة الثانية ١٩٦٤ ، ص ٤٥ - ٤٧ ، حسن محمود نفس المرجع ص ١٥٠

(٤٤) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٠

(٤٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩

(٤٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٠

(٤٧) المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٦

واللغة الافريقية التى يقصدها الحسن الوزان هى اللغة التى يطلق عليها - وكما يقول - اسم (أوال أمزيغ) ، أى الكلام النبيل ، والتى يسميها العرب البربرية . وهى لغة أفريقية أصيلة مختلفة عن غيرها من اللغات وتشتمل على عدد من المفردات العربية التى تسربت اليها فى الغالب بعد أن جاء العرب الى هذه البلاد وفتحوها (٤٨) .

ويبدو أن الصراع بين العرب والبربر الذى شهده القرن الأول أثناء الفتح ، والصراع الذى شهده القرن الثانى أثناء الصدام بين دولة الخلافة وبين الحركات الخارجية عليها من صفرية وأباضية وغيرها ، وقيام دول بربرية مثل دولة المرابطين والموحدين وبنى مرين ، قد ساعد على بقاء اللغة البربرية بين كثير من سكان بلاد المغرب الأقصى (٤٩) ، وظل لهذه اللغة وجود حتى وقتنا الحاضر ولم يحد منها ويجعلها لغة أقلية إلا عاملان ، أولاهما توالى الهجرات العربية مثل هجرة بنى هلال وغيرهم من العرب الذين تسربوا الى بلاد المغرب الأقصى ، أو دفع بهم الحكام اليها ، مثل عرب بنى معقل وبنى صبيح وغيرهم (٥٠) .

أما العامل الثانى فهو قيام دول فى حكم بلاد المغرب الأقصى فى العصر الحديث من أصل عربى بحث مثل السعديين ثم العلويين الذين ما زالوا يحكمون هذه البلاد حتى الآن (٥١) . ولذلك فانه فى العصور الوسطى كانت العربية والبربرية تسودان هذه البلاد لدرجة أن الادريسي الذى عاش فى القرن السادس للهجرة / الثانى عشر للميلاد لاحظ ذلك وقال ان القبائل التى تسكن حول مدينه فاس رعم أها من البربر الا أنها تتكلم بالعربية مثل بنى يوسف ، وفندلاوة ، وبهلول ، وزواوة ، ومجاصة ،

(٤٨) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩

(٤٩) محمود شتيت خطاب : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٧٥

(٥٠) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ١١٥ ، ٢٠٤ ، الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨

(٥١) محمود شتيت خطاب : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٧٥

وغياثة ؛ وسلاحيون^(٥٢) . ومعنى ذلك أن كلامهم بالعربية كان شيئا
مثيرا للانتباه والملاحظة ، مما جعل الادريسي يقول « ولكنهم يتكلمون
بالعربية »^(٥٣) ، أى أنه كلامهم بالعربية لم يكن أمرا عاديا .

وبالنسبة لبلاد تامسنا فقد سبقت الإشارة الى أنهم كانوا يتكلمون
بالبربرية . ويتحدث بعضهم بالعربية لمجاورتهم للعرب ، وظلوا على هذا
النحو حتى عصر الحسن الوزان الذى لاحظ هذا الأمر ، خاصة وأنه
درس فى فاس بعد أن انتقلت أسرته المغربية الأصل إليها قبيل سقوط
فراطة فى يد الأسبان عام ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م^(٥٤) .

والدليل على صدق قوله هو ما ذكره المؤرخون والجغرافيون الذين
عاشوا قبله بقرون عديدة مثل ابن حوقل والبكرى الذين قالوا إن أهل
تامسنا كانوا يتكلمون بالبربرية . يفهم ذلك من قول ابن حوقل أنه
« ما سهل على ملكهم صالح بن عبد الله »^(٥٥) دعوة أهل تامسنا الى معتقده
والانضمام الى حركته أنه كان « بربرى الأصل مغربى المولد مضطلعا بلغة
البربر يفهم غير لسان من ألسنتهم » فعمل لهم كلاما رتبته بلغتهم^(٥٦) .

ودليل آخر يستفاد من كلام البكرى الذى قال إن رسول أحد
ملوك بنى صالح فى تامسنا الى المستنصر بالله الخليفة الأموى بالأندلس
فى عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٢ م ، استصحب معه مترجما يبين كلامه باللغة
العربية^(٥٧) ، كما أشار البكرى أيضا الى استخدام البربر فى بلاد تامسنا

(٥٢) نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٤٦

(٥٣) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٥٤) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ٦ ، ٧

(٥٥) صالح بن عبد الله اسمه الصحيح هو صالح بن طريف كما
ورد عند البكرى .

انظر : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٥

(٥٦) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٨٢

(٥٧) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٤ - ١٣٥

الى استخدام عبارات دينية باللغة البربرية كقولهم ابسمن ياكش^(٥٨) ،
أى باسم الله ، ومقر باكش^(٥٩) ، أى الله أكبر أو الكبير الله ، وايحن
ياكش ، ومعناها الله أحد أو الواحد الله ، وردام ياكش ومعناها لا أحد
مثل الله^(٦٠) . هذا بخلاف ما ذكره البكرى من كلمات وعبارات مترجمة
الى اللغة العربية من أول سورة أيوب التى قال أنها كانت أول سور
كتابهم^(٦١) .

ومعنى ذلك أن دولة بنى صالح بن طريف فى بلاد تامسنا كانت دولة
بربرية خالصة ، أقامت قبيلة بربرية هى برغواطة ، وكانت اللغة السائدة
فيها هى اللغة البربرية ، وكان لها مذهبها الدينى الخاص بها ، فكيف
قامت هذه الدولة ، وكيف تم ظهورها ، وما هى الظروف التى ساعدت
على قيامها ؟

وتسهيلا للإجابة عن هذه التساؤلات يمكن أن نقسم
المراحل التى مرت بها هذه الدولة الى ثلاث مراحل ، هى مرحلة النشأة
والتأسيس ، ثم مرحلة التوسع والازدهار ، وأخيرا مرحلة السقوط الذى
تم على فترات استغرقت أكثر من قرن من الزمان .

(٥٨) ابسمن ياكش عند ابن عذارى . انظر ، البيان المغرب ،
ج ١ ص ٢٢٧

(٥٩) مقر باكش عند ابن عذارى . انظر ، البيان المغرب ،
ج ١ ص ٢٢٧

(٦٠) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٩

(٦١) المصدر السابق ، ص ١٤٠

(٣)

نشأة دولة بنى صالح فى تامسنا

تنسب دولة بنى صالح بن طريف فى تامسنا بالمغرب الأقصى الى صالح رغم أن واضح الأساس لهذه الدولة هو طريف نفسه ، ولكن البربر قدموا ابنه صالحا دون باقى اخوته الثلاثة^(١) ، فبقى الحكم فى ذريته وحده دون هؤلاء الاخوة ولذلك نسبت الدولة اليه .

أما والده طريف الذى مهد له الأمن ويسر له سبيل الوصول الى حكم تامسنا ، فقد اختلف المؤرخون فى أصله وفى اسمه ، ولكن الشهير أن اسمه طريف بن مالك الملقب بأبى زرعة^(٢) . أما أصله فهناك رواية تقول بأنه عربى من قبيلة معافر أو فزع اليمينية^(٣) . وقد بنيت هذه الرواية على أساس أنه من المستبعد أن يبعث موسى بن نصير الطليعة الكشفية الأولى التى مهدت لفتح الأندلس تحت قيادة رجل غير عربى ، رغم أن هذه الرواية استندت على نصوص تدل على أن طريفا كان مولى من موالى البربر^(٤) .

أما الرواية الثانية فقد استندت الى نصوص أندلسية جديدة وقالت

-
- (١) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥
(٢) طريف بن مالك يسمى عند ابن حوقل (صورة الأرض ص ٨٢) باسم عبد الله ، وهو عند صاحب أخبار مجموعة (ص ١٦) طريف الملقب بأبى زرعة ، وعند البكرى (ص ١٣٥) يسمى طريفا فقط ولم يشر الى اسم أبيه ، وتابعه ابن عذارى على ذلك (انظر : البيان المغرب ج ١ ص ٢٢٢) وهو عند ابن خلدون (تاريخه ج ٦ ص ٢٠٧) طريف أبو صالح المطغرى وسماه الحميرى فى كتابه صفة جزيرة الأندلس المأخوذ من كتابه الروض المعطار (ص ٨) باسم طريف بن ملوك المعافرى ويكنى أبا زرعة ، وذكره المقرئ فى كتابه فزع الطيب (ج ١ ص ١٠٦) بأنه طريف البربرى مولى موسى بن نصير ، كما ذكره (ج ١ ص ١٠٨) على أنه طريف بن مالك النخعى ، وايضا (ج ١ ص ١١٨) طريف المكنى أبا زرعة .

(٣) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص ٧٠

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٠ هامش (٢) ، ص ٧١

انه مسلم من البربر ومولى من موالى موسى بن نصير^(٥) . وهناك رواية
ثالثة انفرد بها البكرى تقول بأنه ليس من البربر وليس من العرب ،
انما هو يهودى الأصل من ولد شمعون بن يعقوب بن اسحاق^(٦) .

والحقيقة أن الرجل كان مسلما ومولى من موالى البربر . يتبين ذلك
من قول ابن حوقل وهو أقدم المصادر التى ذكرت ابنه صالحا فقال عنه
أنه « بربرى الأصل مغربى المولد »^(٧) وهى عبارة تدل على أصل الابن
وبالتالى تدل على أصل أبيه . وقد أشار الى أصله البربرى أيضا
ابن خلدون^(٨) ، وصاحب أخبار مجموعة^(٩) ، والمصادر والمراجع
الاندلسية المختلفة^(١٠) ، ولا تدل نسبته الى قبيلة معافر على أنه معافرى ،
ذلك لأنه كان مولى من موالى هذه القبيلة وليس من أبنائها الأحرار
الخلص ، وهذا أمر مشهور فى تاريخ القبائل العربية التى ساهمت فى
الفتوحات الإسلامية وانضم اليها رجال من البربر وصاروا موالى لها
اما نتيجة للأسر ، أو بالاختيار الحر ، والدليل على ذلك أن الحميرى
يجعله مولى من موالى البربر وينسبه فى نفس الوقت الى معافر^(١١) .

(٥) مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر امرائها ، تحقيق
ابراهيم الأيبارى ، بيروت ١٩٨١ ، المقبرى ج ١ ص ١٠٦ ، ١١٨ ،
عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط
غرناطة ، دار العلم ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، ص ٤٥ ، شكيب
ارسلان : الحل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية ، دار مكتبة الحياة ،
بيروت ، بدون تاريخ ، ج ١ ص ٢٠٠

(٦) المغرب فى أمر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١٣٥

(٧) صورة الأرض ، ص ٨٢

(٨) تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢١٠

(٩) مجهول : أخبار مجموعة ، ص ١٦

(١٠) انظر : الحميرى : نفس المصدر ، ص ٨ ، ١٢٧ ،
المقبرى : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٨ ، عبد الرحمن
الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص ٤٥ هامش (٢) ، السيد
عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ٧٠ هامش (٢)
(١١) صفة جزيرة الأندلس ، ص ٨

ذلك أن بعض البربر كانوا يفضلون أن يلحقوا أنفسهم بأحدى القبائل العربية وينضمون تحت لوائها بالولاء ، فينتسبون إليها ، وقد حدث هذا الأمر مع صاحبنا طريف بن مالك هذا ، وحدث مع غيره من الموالي وحتى من العرب الذين أقاموا الدول . والمثال على ذلك هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الذي أقام دولة الأباضية عام ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م في طرابلس وأفريقية ، فلم يكن هذا الرجل من معافري مثله في ذلك مثل طريف بن مالك ، ولكنه كان مولى من موالي هذه القبيلة (١٢) .

أما استبعاد أن يرسل موسى بن نصير مولى من البربر على رأس حملة استكشافية تمهد لفتح الأندلس ، بدعى أنه لا بد أن يكون ذلك القائد من العرب أنفسهم ، فهو أمر ليس بالضرورى وليس هناك ما يمنع أن يكون هذا القائد من البربر ، والدليل على ذلك أن قائد الحملة الرئيسية التى تولت عبء فتح الأندلس وهو طارق بن زياد كان بربرى الأصل وكان أيضا مولى لموسى بن نصير (١٣) .

كما أنه كان من الضرورى أن يتكون الزحف الأول على بلاد الأندلس — سواء كان استطلاعيًا أو غزواً — من قواد وجند من البربر ، أولا ، لأنهم كانوا أدري بهذه البلاد بعكس العرب الذين لم يكونوا يعرفون عنها شيئا بينما كان البربر يعرفون عنها الكثير نتيجة لمجاورتهم لها حيث أن المغرب والأندلس يؤلفان فى الواقع وحدة جغرافية واحدة ، ولذلك أثر موسى أن تكون هذه الحملة الاستطلاعية من البربر (١٤) ، وكان من الأنسب حينئذ أن يكون قائد هذه الحملة من البربر أيضا وهو طريف بن مالك . تماما مثلما حدث فى حملة طارق بن زياد،

(١٢) أبو زكريا : كتاب سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبى زكريا دار الغرب الاسلامى ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٢ ، ص ٥٧ ، ٥٩ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٣١٧
(١٣) مجهول : أخبار مجموعة ، ص ١٧ ، الحميرى : نفس المصدر ،

ص ٩
(١٤) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص ٧١

فقد كانت تتكون من البربر والموالي ولم يكن فيها من العرب الا أقل القليل^(١٥) ، رغم أن موسى كان قد ترك تحت امره طارق بعد أن ولاء طنجة وما والاها من بلاد المغرب الأقصى جنودا من العرب يقدر عددهم باثنى عشر ألفا^(١٦) ، ولكنه فضل أن تكون الحملة التي اتجهت لفتح الأندلس تحت قيادة قائد وجند من البربر لما سقناه من أسباب .

وثانيا ، لأن البربر الحديثي عهد بالاسلام كانوا في ذلك الوقت يتقدمون حماسة لفتح البلاد ونشر الاسلام ، وكانت هذه الميول وتلك الحماسة تجد صداها عند الخلفاء والحكام العرب ، فهم من ناحية يستفيدون من هذه القوة الاسلامية الجديدة في تحقيق الأهداف الاسلامية ، ومن ناحية أخرى يشغلونها بخوض غمار هذه الفتوحات حتى لا يتيحوا لها فرصة التفكير في أي أمر قد يسبب متاعب للدولة .

ولذلك كان قائد أول حملة استطلاعية لفتح الأندلس من البربر وهو طريف بن مالك ، وكذلك كان قائد الحملة الرئيسية التي توجهت لفتح هذه البلاد من البربر أيضا وهو طارق بن زياد . أما الأصل اليهودي لطريف بن مالك الذي أشار اليه البكري ونقله عنه ابن عذارى ، فهو أمر غير صحيح لعدة أسباب :

السبب الأول : هو أن ابن حوقل الذي يعتبر أول من تحدث عن يرغواطة وبنى صالح بن طريف ودورهم السياسي والديني ، لم يشر إطلاقا الى الأصل اليهودي لهؤلاء القوم^(١٧) ، وهو أقدم من البكري الذي أشار الى هذا الأصل^(١٨) . فابن حوقل توفي عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م بينما توفي البكري عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، وكان ابن حوقل معاصرا

(١٥) الحميري : نفس المصدر ، ص ٩ ، مجهول : أخبار مجموعة ،

ص ١٧

(١٦) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٢

(١٧) صورة الأرض ، ص ٨٢ ، ٨٣

(١٨) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٧

لفترة ازدهار هذه الدولة ، وما كتبه عن أحوال بلاد المغرب وأهلها ومنهم بنو صالح بطبيعة الحال كتبه عن ادراك ومشاهدة بالبيان أو أخذه عن شياً في هذه البلاد وكان أدري بها (١٩) .

أما البكرى فلم يكن معاصراً للفترة الرئيسية من عمر دولة بنو صالح والتي تمتد منذ قيام هذه الدولة في عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م الى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م وهو العام الذي انقطعت فيه سلسلة ملوك هذه الأسرة إلا واحداً ظهر حوالي منتصف القرن الخامس للهجرة (٢٠) .

والسبب الثاني هو أن ابن خلدون نفي قصة الأصل اليهودي لصالح بن طريف وبالتالي لأبيه طريف بن مالك نفيًا قاطعاً وقال انه من « الأغاليط البينة » وأرجع أصل صالح وأبيه طريف بن مالك الى برغواطة من مسمودة وقال مبزهننا على ذلك انه « لا يتم الملك والتغلب على النواحي والقبائل لمنقطع جذمه دخيل في نسبه ، سنة الله في عبادته ، وانما نسب الرجل في برغواطة ، وهم شعب من شعوب المصامدة معروف » (٢١) .

والسبب الثالث : هو أن العصر الذي نشأت وازدهرت فيه دولة بنو صالح البرغواطين كان عصر عداوات وخصومات مذهبية وسياسية ، ولذلك فانه من المرجح أن قصة الأصل اليهودي التي ظهرت فجأة عند البكرى الذي كتب كتابه الذي أورد فيه هذه القصة في عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ، ما هي الا تعبير عن أثر هذه العداوات والخصومات ، وما هي الا اختراع أو تلفيق من أعداء بنو صالح وخصومهم .

يدل على ذلك أن قصة الأصل اليهودي وردت عند البكرى على لسان رسول أحد ملوك بنو صالح البرغواطين كان قد وفد الى الخليفة الأموي الحكم المستنصر في عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٢ م لتوثيق العلاقات التاريخية التي كانت تربط الفريقين والتي كان يحرص بنو صالح على

(١٩) صورة الأرض ، ص ٨٣

(٢٠) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٩

(٢١) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢١٠

استمرارها قوية وفعالة^(٢٣) ، ولم يكن منطقيا أو معقولا ، ولم يكن من الحسنة السياسية أن ينسب هذا الرسول ملكه الى اليهود وأمام خليفة عربي مسلم ، في الوقت الذي كان يحرص فيه معظم ملوك البربر والسودان على الانتساب الى أصل عربي ، بل الى أصل هاشمي شريف أو قرشي ، زيادة في توثيق الروابط بينهم وبين دولة العروبة والاسلام^(٢٣) .

وعلى ذلك فإن طريف بن مالك الملقب بأبي زرعة وبأبي صالح التي حرفت في إحدى طبعات كتاب تاريخ ابن خلدون الى أبي صبيح^(٢٤) ، هو مسلم من البربر ، أو مولى مسلم من البربر من موالى موسى بن نصير تماما كما كان طارق بن زياد ، وهو رجل ينتمي الى برغواطة ، وبرغواطة اخذ قبائل مصمودة^(٢٥) ومصمودة إحدى قبائل البرانس الخمسة أو السبعة^(٢٦) ، وكانت أكبر هذه القبائل وأوفرها عددا وأوسعها شعوبا وأكثرها بطونا^(٢٧) . وكانت هذه البطون تتركز وتنتشر في جنوب المغرب الأقصى وفي وسطه وفي شماله^(٢٨) . وكانت برغواطة

(٢٢) البكري : نفس المصدر ، ص ١٣٤ ، ١٣٥

(٢٣) المراكشي : نفس المصدر ، ص ٩٩ ، ١٠٤ ، ابن سعيد المغربي :

بسط الأرض ، ص ٢٦ ، ٥٩

(٢٤) تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٧

(٢٥) المصدر السابق ج ٦ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧

(٢٦) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٦٥ ، ابن حزم : نفس

المصدر ، ص ٤٩٥

(٢٧) الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، عالم الكتب ،

بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٩ ، ج ١ ص ٢٣٩ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٦

القلقيشندي : قلائد الجمان في التعريف بعرب الزمان ، تحقيق ابراهيم

الابيارى ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢ ، ص ١٦٩

(٢٨) كان مصامدة الجنوب يتركزون في السوس الأقصى وحاجا

وجزولة وناحية مراكش واغمات ونفيس وفي جبال درن التي تعرف بجبال

أطلس ولذلك سموا بمصامدة جبال درن ، وكانوا أمما كثيرة وقبائل وأفر

العدد اتخذوا المعاقل والحصون والقصور بهذه الجبال الفينة بمواردها

وعلى رأسهم بنو صالح يمثلون مصامدة الوسط حيث أقاموا لأنفسهم دولة فى إقليم تامسنا على يد طريف بن مالك الذى كان كبير يرغواطة فى أوائل القرن الثانى للهجرة (٢٩) .

وكما أشرنا فقد كان لهذا الرجل شأنه فى الفتوحات الإسلامية أيام موسى بن نصير . ويبدو أنه كان على قدر كبير من الكفاءة والمقدرة ، ولذلك أوكل اليه موسى قيادة أول حملة استطلاعية خرجت الى السواحل الجنوبية لبلاد الأندلس كى تستطلع أحوالها وتستكشف مدى قوتها وقوة أهلها وقدرتهم على الدفاع عنها ولتتحقق من نوايا جولييان حاكم سبتة الذى حرضهم على فتح هذه البلاد (٣٠) .

كان طريف بن مالك على رأس أربعمئة جندي من المشاة ومائة من الفرسان تخبر بهم بحر الزقاق الذى عرف فيما بعد بمضيق جبل طارق فى أربع سفن ، ونزل فى جزيرة صغيرة تسمى بالوماس Palomas

المائية والزراعية والحيوانية ، ومنهم قامت دولة الموحدين على يد المهدي ابن تومرت فى بلاد المغرب الأقصى ، ودولة الحفصيين فى تونس .
انظر : البكرى ، ص ١٦٠ ، الادريسي ج ١ ص ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ،
ابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، الحسن الوزان ، ج ١ ص ٣٦

اما مصامدة الشمال وعلى رأسهم قبيلة غمارة فقد كانوا يسكنون إقليم طنجة وبلاد الريف حتى تلمسان فى بلاد الجزائر . وغمارة لا تقال عدداً عن مصامدة الجنوب ، ورغم كثرتهم فانهم لم ينشئوا دولة لأنفسهم كما فعل مصامدة الجنوب والوسط ، انما أقاموا دولة لغيرهم مثل امارة تكور التى راستها أسرة عربية من بنى صالح بن منصور الحميرى ، كذلك التفوا حول الادارسة فى بلاد الريف وساعدوهم على البقاء مدة طويلة فى هذه البلاد حتى قضى عليهم المنصور بن أبى عامر حاكم الاندلس فى عام ٣٧٧ هـ .

انظر : ابن خلدون ج ٦ ص ٢١١-٢١٩ ، الحسن الوزان : ج ١ ص ٢٨

(٢٩) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٧

(٣٠) الحميرى : نفس المصدر ، ص ٧ ، ٨ ، مجهول : أخبار

مجموعة ، ص ١٦ ، ١٧ .

على مقربة من مدينة طريف الحالية التي سميت باسمه لنزوله فيها والتي لا زالت تحمل اسمه حتى الآن وتعرف باسم Tarifa (٣١) .

ومن مدينة طريف شن طريف ورجاله سلسلة من الغارات على الساحل الجنوبي للأندلس المقابل لساحل سبته فيما بين جزيرة طريف والجزيرة الخضراء (٣٢) ، وجمع معلومات عن المنطقة بعد أن درس أحوالها وتعرف على مواقعها وخاصة الموقع الذي عرف فيما بعد باسم جبل طارق ، فكانت هذه المعلومات عوناً في وضع خطة الفتح ونزول طارق بن زياد بجيشه على هذا الجبل (٣٣) .

(٣١) الحميري : نفس المصدر ، ص ٨ ، ١٢٧ ، مجهول : أخبار مجموعة ، ص ١٦ ، السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص ٧٠ ، عبد الرحمن الحجي : نفس المرجع ، ص ٤٥ - ٤٦ جزيرة طريف ليست بجزيرة ، وإنما هي مدينة تقع في شبه جزيرة تقع في أقصى نقطة من الطرف الجنوبي للقارة الأوربية . وتقع على هذا الطرف من جانبه الجنوبي الغربي هذه المدينة التي تقع أمامها جزيرتان ويتلاقى عندهما البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي . كما تقع على هذا الطرف من جانبه الجنوبي الشرقي مدينة أخرى تعرف باسم الجزيرة الخضراء ، وهي أيضاً ليست بجزيرة . ومدينة طريف التي سميت باسم طريف بن مالك والتي اشتهرت باسم جزيرة طريف تقع عند سفح سلسلة من الجبال تسمى جبال القمر وتبعد عن جزيرة طريف بمقدار ثمانية عشر ميلاً وادي يسمى وادي النساء ، وهو نهر جار . كما أن جزيرة طريف تقابل في الضفة الثانية من بحر الزقاق أو مجاز الزقاق مرني القصر المنسوب لمصمودة ، وعرض البحر بينهما اثنا عشر ميلاً . وهذا القصر حصن كبير يقع بين سبته وطنجة ، وكانت تصنع في مينائه السفن والحراريق التي يسافر فيها الناس إلى بلاد الأندلس . انظر : الأديسي : نزهة المشتاق ، ج ٢ ص ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣٩ ، المراكشي : ص ٢٠٧ ، ابن سعيد : بسط الأرض ، ص ٧٣ ، الحميري : ص ١٢٧ دائرة المعارف الإسلامية ، ج ١٥ ، ص ١٧١ ، شبيب أرسلان : الحبل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، ج ١ ص ٢٠٠ ، محمد أسعد طلس ، تاريخ الأمة العربية في عصر بني أمية ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٨ ، ص ٢٢٣ (٣٢) مجهول : أخبار مجموعة ، ص ١٦ ، ١٧ ، الحميري : ص ١٢٧ ، السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ص ٧٠ ، حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٦٧

(٣٣) عبد الرحمن الحجي : نفس المرجع ، ص ٤٦

وبعد أن أدى طريف مهمته وأنجز ما أرسل من أجله عاد في رمضان من عام ٩١ هـ / يوليو ٧١٠ م بجيشه سالماً محملاً بغنائم كثيرة ، وفتح عن ذلك أن تبين لموسى بن نصير صدق جولييان الذي كان حاكماً لسبته في ذلك الحين والذي كان قد استحث المسلمين على فتح الإندلس الأغراض شخصية ، فاطمأنت نفس موسى واشتد عزمه على فتح هذه البلاد ، واستدعى مولاة طارق لهذا الغرض ، وأمره على سبعة آلاف جندي جلهم كما قلنا من البربر والموالي ليس فيهم من العرب الا قليل (٣٤) .

ونحن هنا لا يهمنا أن نتعرض لفتح الإندلس فذلك خارج عن نطاق بحثنا ، ولكن يهمنا أن تبين دور طريف وقومه في هذا الفتح ، لأن هذا الأمر سوف يكون له أثره في اتجاهاتهم السياسية فيما بعد . وحسبما ذكرنا كان لطريف فضل قيادة أول حملة استطلاعية كان لها نتائجها المفيدة التي أشرنا إليها .

وطببعي أن طريف بن مالك لن ينتهي دوره عند هذا الحد ، بل فراه ليكون على رأس حملة أخرى مكونة من خمسة آلاف جندي أغلبهم من الفرسان أرسلها موسى بن نصير لطارق بن زياد نجدة له بعد أن كان طارق قد نجح في العبور إلى الأندلس في عام ٩٢ هـ / ٧١١ م ، وتمركز في جنوب هذه البلاد وخاصة في الجبل الذي عرف باسمه ، واحتل المنطقة الجنوبية فيما بين الجزيرة الخضراء والبحيرة عند وادي البرباط ، وأقبل إليه ملك الأندلس المسمى لذريق في جمع كبير وجيش عرمرم لا قبل لطارق به ، فأرسل لموسى يستنجد به فأرسل إليه طريف بن مالك على رأس هذا المدد ، وبهم كملت عدة جند طارق فصاروا اثني عشر ألفاً (٣٥) .

(٣٤) بن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٧ - ٩ ، مجهول : أخبار مجموعة ص ١٧ ، الحميري : نفس المصدر ص ٩ ، السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص ٧٠ .

(٣٥) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٣ ، مجهول : أخبار مجموعة ، ص ١٧ ، السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص ٧٥ ، عبد الرحمن الحجى : نفس المرجع ، ص ٤٦ - ٤٧ ، حسين مؤنس : نفس المرجع ، ص ٧٢ .

وطيحي أيضا أن طريف بن مالك سواء في حملته الأولى الاستطلاعية أم في حملته الثانية المنجدة لطارق بن زياد كان على رأس قومه من بربر برغواطة ومصمودة التي كانت تقيم في بلاد الريف وتمتد ديارها جنوبا لتشمل بلاد تامسنا كما سبق القول ، بل إن جيش طارق بن زياد نفسه كان يحتوى أيضا على عدد كبير من مصمودة التي كانت تقيم في بلاد الريف وتامسنا حيث كان طارق حاكما على هذه المنطقة منذ أن ولاه عليها موسى بن نصير في عام ٨٥هـ / ٧٠٤م (٣٦) أو في عام ٨٨ هـ / ٧٠٧ م حسبما يقول ابن خلدون (٣٧) . يضاف الى ذلك هؤلاء الرهائن من المصامدة الذين كان القائد زرعة بن أبي مدرك وغيره من القواد قد أخذهم بعد أن قاتل مصمودة وهزمها ، وحملهم الى طنجة وتركهم عند طارق بن زياد الذي كان واليا على هذه المدينة وما حولها ، واستعان بهم في حملته على بلاد الأندلس (٣٨) .

وأمامنا دليان على أن برغواطة وزعماءها من بني طريف بن مالك وسائر قبائل مصمودة الأخرى قد اشتركوا في فتح بلاد الأندلس : الدليل الأول هو ما ذكره البكري من أن اسم برغواطة نسبة الى وادي برباط (٣٩) الذي جرت عنده المعركة الفاصلة التي تمكن فيها طارق بن زياد من هزيمة جيش الأسبان وسحق قواتهم ومطاردة من نجا منهم حتى تمكن من دخول طليطلة عاصمة القوط في ذلك الحين (٤٠) .

وفي ذلك يقول البكري أن يونس بن الياس بن صالح بن طريف « أصله من شنودة من وادي يربط ثم رحل الى المشرق وحج وعاد الى

(٣٦) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٣

(٣٧) تاريخ ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨٨

(٣٨) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٢ ، ٤٣ ، ابن خلدون :

نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٨٨

(٣٩) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٨

(٤٠) مجهول : اخبار مجموعة ، ص ١٨ - ٢٠ ، حسير مؤنس :

نفس المرجع ، ص ٧١ - ٧٣

تأمننا ودعا أهلها الى دينه . . . وسمى من اتبعه بربطى لما كان من بربط ثم أحالوه بالسنتهم وردوه الى لغاتهم فقالوا برغواطى « (٤١) . وينسب ابن خلدون هذا العمل الى صالح بن طريف فيقول ان بعض الناس نقل أن صالحا هذا « يهودى من ولد اسحاق بن يعقوب تشأ برباط ورحل الى المشرق وقرأ على عبد الله المعتزلى واشتغل بالسحر وجمع فنونا وقدم المغرب ووزل تأمننا فوجد بها قبائل جهالا من البربر فأظهر لهم الزهد وسحرهم بلسانه وموه عليهم فقصدوه واتبعوه فادعى النبوة وقيل له برباطى نسبة الى الموطن الذى تشأ به وهو برباط واد بفحص شريش من بلاد الأندلس فعريت العرب هذا الاسم وقالوا برغواط ، ذكر ذلك كله صاحب كتاب الجواهر وغيره من النسابين للبربر ، وهو من الأغاليط البينة . . الخ « (٤٢) .

ومع أن هذا القول وكذلك قول البكرى من الأغاليط بالنسبة للأصل اليهودى لصالح بن طريف الا أنه يدل على أن برغواطة قد اشترك منها قوم فى فتح الأندلس مع قائدهم طريف وأيضا مع طارق بن زياد ، وربما بقى بعضهم هناك مما جعل بعض الناس يقولون أن صالحا بن طريف أو حفيده يونس بن الياس بن صالح ابن طريف تشأ فى وادى برباط فى هذه البلاد ومن ثم جاءت النسبة الى برباط فقبل برغواطى ومنه جاء اسم برغواطة الذى لا يتنافى مع كون برغواطة احدى قبائل المصامدة كما ذكر ذلك ابن خلدون وأكدته على اعتبار أن برغواطة ضمت عددا من قبائل مصمودة وكانت هى احدى هذه القبائل « (٤٣) .

أما الدليل الثانى والمؤكد فهو ما يشير اليه ابن حزم من وجود بيوتات عديدة لمصمودة فى بلاد الأندلس سواء فى منطقة الشغر أم فى غيرها من أنحاء الأندلس . . ولا ندرى على وجه التحديد هل

(٤١) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٧ - ١٣٨

(٤٢) تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٩ - ٢١٠

(٤٣) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٠٧ ، ٢١٠

اشتركت هذه البيوتات المصمودية في فتح الأندلس تحت قيادة طريف أو طارق ، أم أنها هاجرت الى بلاد الأندلس بعد تمام الفتح ، أو أن بعضا منها كان مع جيش الفتح والبعض الآخر هاجر إليها بعد ذلك ، وهو الأمر المعقول والمقبول والذي يدل عليه سياق الأحداث .

وعلى أى حال فقد كان من بين أمراء الثغر وهى البلاد التى تقع على أطراف الأندلس من فواحيها الشمالية والتى كانت تقف فى مواجهة الأسبان النصارى وترد كيدهم وعدوانهم على هذه البلاد الاسلامية ، عدد كبير من الأمراء المصامدة والبيوت المصمودية^(٤٤) . وفى غير بلاد الثغر كان من مصمودة أيضا بيوت أخرى عديدة ، منها بيت طريف الذى نتحدث عنه وصاحب الحملة الاستطلاعية الأولى ووالد صالح الذى نسبت اليه دولة يرغواطة فى بلاد تامسنا وهى موضوع بحثنا . وكان بنو طريف هؤلاء يقيمون فى مدينة أشونة^(٤٥) .

(٤٤) من البيوت المصمودية فى منطقة الثغور بالأندلس بنو الفرج بوادى الحجارة ، وبنو مضى وبنو رسين ، وبنو سالم الدين تنسب اليهم مدينة سالم ، وتنسب مدينة الفرج الى ابنه الفرج بن سالم . وكان بنو سالم هؤلاء موالى لبنى مخزوم ، وكان لأبى جعفر منهم ابنان بطرسونة قرب تطيلة فى منطقة الثغر الأعلى الأندلسى (سرقسطة) وهما عبد الله وأحمد ، وعقبه من هذين الابنين فى هذه المنطقة .

انظر : ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، ص ٤٩٩ ، ٥٠١ .
ومعنى أن مدينة سالم ومدينة فرج تنسب الى رجال من مصمودة فإن ذلك يدل على أن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى فتح هذه البلاد أو هاجروا إليها بعد قليل وبنوا فيها هذه المدن التى حملت اسماءهم .
(٤٥) من البيوت المصمودية التى أقامت فى غير منطقة الثغور ، بالأندلس ، بنو سفيان بن عبد ربه الحاجب الذى يقول ابن حزم أنهم بادوا ولا يعلم لهم بقية ، وبنو يحيى بن كثير ، صاحب الامام مالك ابن انس رضى الله عنه ، وكانت لهم ثروة وعدد ، وكانت لهم بقية يسيرة فى عصر ابن حزم . وعبد الجبار بن زاقلة القائم بمدينة ماردة ، وبنو دانس ابن عوسجة الذين كانوا أصحاب قلنبيرة ، وينسب قصر أبى دانس المعروف الى جدهم هذا ، ومنهم أيضا صاحب مدينة ماردة مسعود ابن تاجيت بن محمد ، وكان هو وأبوه وجده أصحاب هذه المدينة ، كما كانوا أصحاب قورية ولجذانية ولكنهم تركوها وفروا منها بعد أن قلب عليها الأسبان .

انظر ، ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، ص ٥٠٠ ، ٥٠١ .

ومن اشارات ابن حزم وحديثه عن البيوتات المصمودية في بلاد الأندلس يتبين لنا عظيم مشاركة مصمودة وطريف وبنيه في فتح هذه البلاد وفي تعميرها وفي الدفاع عنها وفي نشر الاسلام بها وفي حكم كثير من مدنها حتى صاروا أمراء وكونوا بيوتا حاكمة . ومع ذلك فقد جد من الأحداث ما عكر الصنف بين العرب والبربر الذين كانوا قد أسلموا وحسن اسلامهم وصار منهم القواد الذين رأينا جهدهم في فتح بلاد الأندلس - أمثال طريف بن مالك وطارق بن زياد وغيرهما ، فحدث صدام بين الفريقين على أرض المغرب الأقصى ثم في بلاد الأندلس بعد ذلك وتنتج عن هذا الصدام قيام دولة بنى صالح بن طريف في تلمسان بالمغرب الأقصى .

ذلك أن بعض ولاية بنى أمية لم يحسنوا معاملة البربر وأساءوا اليهم فثاروا عليهم في عام ١٢٢هـ / ٧٤٠م ، بعد أن كانوا قد اعتنقوا مذاهب معارضة للدولة بنى أمية وخاصة مذاهب الخوارج ، ومن أشهر هذه المذاهب المذهب الصفري الذي انتشر في بلاد المغرب الأقصى أكثر من غيرها من بلاد المغرب الأخرى . ولم يكن قيام هؤلاء الخوارج الصفرية من البربر في وجه ولاية بنى أمية خروجاً على الدين ، بل كان خروجاً على السلطة الحاكمة لظلم الولاية لهم وقيامهم بفرض ضرائب فادحة غير مشروعة ، وزاد الطين بلة أن أحد هؤلاء الولاة أراد أن يشم (بكسر الشين) حراسه من البربر في أيديهم ليعرفوا للناس كما تصنع الروم ، فأنف البربر من ذلك وقاموا عليه^(٤٦) ، خاصة وأنه أراد أن يفرض الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم تأسيساً بما فعله الحجاج بن يوسف الثقفي بالعراق من قبل ، فقتله البربر لشهر من ولايته وذلك في عام ١٠١هـ / ٧١٩م وولوا على أنفسهم عاملاً سابقاً وكتبوا الى الخليفة

(٤٦) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢١٤ ، الرقيق القيرواني : نفس المصدر ، ص ٩٩ ، ١٠٠

الأموي يزيد بن عبد الملك بأنهم لم يخرجوا عن الطاعة ، واعتذروا إليه عن قتلهم لوالدهم يزيد بن أبي مسلم (٤٧) .

ومع ذلك لم يستفد الحكام والولاة الأمويون من هذا الدرس ، إذا أتنا نرى عند بداية العشرينات من القرن الأول للهجرة عاملا آخر — وكان واليا على طنجة من قبل عبيد الله بن الحبحاب أمير إفريقية والمغرب والأندلس — يريد تخمين البربر رغم إسلامهم زاعما أنهم فيء المسلمين ، وهو عمل لم يقم به عامل قبله ، إذ كان الولاة يخمنون من لم يستجيب للإسلام (٤٨) .

هذا في الوقت الذي لم يجد فيه هؤلاء البربر ما كانوا يؤملونه ثمتا لما قاموا به من تضحيات في حربهم الى جانب العرب ، ولهم يجلدوا في كثير من ولااتهم ما يجيبهم اليهم ، فقد كان بعض الولاة يعاملوهم معاملة السيد للسود لا معاملة النظير للنظير (٤٩) مما هياهم للثورة واعتناق المذاهب المعارضة للدولة سواء مذاهب الخوارج أو مذاهب الشيعة . فالعروف أن دولا خوارجية قامت في بلاد المغرب على يد البربر في القرن الثاني للهجرة مثل دولة بني مدرار في سجلماسة ودولة بني صالح في تامسنا ، كما قامت دولة شيعية كبرى هي الدولة الفاطمية بمساعدة البربر أيضا قبيل نهاية القرن الثالث للهجرة .

وقد عبرت ثورات البربر التي اندلعت منذ عام ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م أولا في طنجة والمغرب الأقصى عن ظهور أولى الحركات الاستقلالية ، وقد نادى هذه الحركات بأن الامامة أو الخلافة ليست مقصورة على

(٤٧) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٨٨

(٤٨) الرقيق القيرواني : نفس المصدر ، ص ١٠٩ ،

ابن عسكاري : نفس المصدر ، ج ٥ ص ٥١ ، ٥٢ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ، بدون تاريخ ، ص ٤٥

(٤٩) حسن ابراهيم حسن : نفس المرجع ، ص ٤٥ ، حسين

مونس : نفس المرجع ، ص ١٤٧ ، ١٦٢

العرب وحدهم بل يشترك فيها المسلمون على السواء ، فهي ثورة على الإمامة القرشبية • وقد قلق البربر هذه المبادئ واعتنقوها معارضة منهم للحكم الأموى ووقفا فى وجه الخلافة وعمالها الذين أساءوا السيرة والتدبير» (٥٠) •

وقد انبثت أول شرارة لهذه الثورة فى مدينة طنجة حيث توجد قبيلة غمارة المصمودية وقبيلة مطفرة التى خرج منها زعيم الثورة المعروف باسم ميسرة المطفرى أو ميسرة الحقيير كما سى نفسه (٥١) • وعتت ثورته طنجة وقامسنا ببلاد السوس الأدنى ، وكان المصامدة مع زفاعة يشكليون جل قوات هذه الثورة حيث كانوا هم غالبية سكان هذه المنطقة لدرجة أن جوليان حاكم سبتة كان يسمى ملك غمارة (٥٢) واستطاعت برغواطة وغمارة ومطفرة أن تستقل بطنجة والسوس الأدنى تحت قيادة ميسرة المطفرى (٥٣) الذى تسمى بالخلافة وعين العمال (٥٤) ، وزحف إلى بلاد السوس حيث قتل عاملها وكان ابنا لعبيد الله بن الحبحاب وإلى افريقية والمغرب كله • وبمقتله بدأ صدام كبير بين الدولة وبين بربر المغرب الأقصى وعلى رأسهم قبائل مصمودة وغمارة ومطفرة (٥٥) تحت قيادة ميسرة المطفرى الذى كان رأس الصفرية فى ذلك الحين (٥٦) •

وكانت برغواطة المصمودية ضمن هذه القبائل التى اشتركت فى هذه الثورة تحت قيادة زعيمها طريف بن مالك ، ذلك أنها كانت هى الأخرى قد اعتنقت مذهب الخوارج فى ذلك الحين • وقد أشار إلى

-
- (٥٠) حسن محمود : نفس المرجع ، ص ١٤٩
 (٥١) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٢
 (٥٢) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٨٦
 (٥٣) حسن محمود : نفس المرجع ، ص ١٥٠
 (٥٤) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢١٨ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٢
 (٥٥) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٢
 (٥٦) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٣

ذلك ابن عذارى وقال انه « كان بالمغرب حينئذ قوم ظهرت فيهم دعوة الخوارج ولهم عدد كثير وشوكة كبيرة وهم برغواطة » (٥٧) .

وقد سبق القول أن برغواطة هي عماد دولة بنى صالح في تامسنا ، وكان طريف بن مالك هو الرجل الذي وضع أساس هذه الدولة . كما سبق أن بينا دوره ودور قبيلته في فتوح الأندلس وفي تعميمها والدفاع عنها ، فما هو دوره الآن في هذه الأحداث التي قام بها خوارج الصفرية في بلاد المغرب الأقصى والتي مهدت لقيام دولته ودولة فيه من بعده ؟

أجاب البكري على هذا التساؤل بقوله إن طريفا كان يحارب إلى جانب ميسرة هو وابنه صالح (٥٨) الذي سميت دولة تامسنا باسمه . ولم يكن طريف يحارب بجانب ميسرة كجندى عادي بل كقائد من قواد ميسرة (٥٩) وكصاحب من أصحابه المقربين (٦٠) ونحن هنا لا يهمنا أن نتحدث عن حروب ميسرة ومن خلفه في قيادة الصفرية بعد مقتله على أيدي أصحابه بعد أن رأوا منه ما يخالف ما يبيعوه عليه (٦١) ، لأن ذلك ليس مما يعنينا في هذا البحث ، وما يعنينا هو دور طريف بن مالك وأثر هذا الدور في قيام دولته في تامسنا .

وبطبيعة الحال فإن دور طريف لم ينته بمقتل ميسرة المطفري ، بل استمر هذا الدور طوال الحروب التي خاضها الصفرية منذ عام ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م ، وهو العام الذي خرجوا فيه على الدولة وهزموا جيوشها في موقعتي الأشراف وبقدورة وحتى هزيمتهم على يد العرب في موقعة القرن في عام ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م والأصنام في عام

(٥٧) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٢

(٥٨) البكري : نفس المصدر ، ص ١٣٥

(٥٩) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٧

(٦٠) البكري : نفس المصدر ، ص ١٣٥ ، ابن عذارى : نفس

المصدر ، ج ١ ص ٢٢٣

(٦١) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢١٨

١٢٥ هـ / ٧٤٣ م^(٦٣) . والدليل على استمرار دوره هو ما أشار إليه ابن عذارى من أن طريفا كان من جملة قواد العسكر الذى بلغ ثلاثمائة ألف مقاتل حسب تقديره والذى اتجه إلى القيروان للقضاء على سلطة بنى أمية فيها وضمها إلى دولتهم التى أقاموها فى بلاد المغرب الأقصى^(٦٣) .

ولكن العرب تمكنوا من هزيمة هذه القوات الضخمة رغم قلة عددهم ، وارتد الصفرية جندا وقوادا إلى بلادهم ، أى إلى المغرب الأقصى بعد أن قتل منهم الكثير وتشتت شملهم وتبدد جمعهم ، وسار طريف إلى تامسنا حيث قدمه البربر هناك على أنفسهم وقاموا بمبايعته^(٦٤) ، فصار قائما بأمر الصفرية فى هذه البلاد^(٦٥) ، وصار حاكما لهم منذ ذلك الحين ، أى منذ عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، وهو العام الذى هزم فيه الصفرية هزيمتهم الثانية أمام العرب فى موقعة الأضنام فى ذلك العام كما سبق القول .

وعلى ذلك يمكننا القول بأن بداية قيام دولة بنى صالح بتامسنا هو عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م . وإلى ذلك أشار ابن عذارى حيث قال فى أخبار ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م أنه فى هذه السنة « كان ابتداء ظهور برغواطة »^(٦٦) التى أعلنت استقلالها وبايعت لطريف بن مالك وليس لابنه صالح كما قال السلاوى ، وذلك بعد أن عاد طريف إلى المغرب الأقصى واستقر فى تامسنا فى عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م^(٦٧) ، وليس فى عام ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م كما أشار ابن خلدون وقال ابن ذلك كان فى عهد

(٦٢) عن المعارك التى خاضها ميسرة ومن جاء بعده فى قيادة الصفرية ، انظر : ابن عبد الحكم ، ص ٢١٨ - ٢٢٣ ، أخبار مجموعة ، ص ٣٦ - ٤١ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٢ - ٥٦ ، الرقيق القيروانى : ص ١١٠ - ١٢٢

(٦٣) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٦ - ٥٧
(٦٤) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٧

(٦٥) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٧

(٦٦) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٦

(٦٧) السلاوى : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٠٣

هشام بن عبد الملك^(٦٨) ، لأن هذا الخليفة معروف أنه توفي في عام ١٢٥ هـ وليس في عام ١٢٧ هـ .

كما أن قيام دولة بني صالح في عام ١٢٥ هـ لم يكن على يد صالح ابن طريف كما قال ابن عذارى^(٦٩) ، وإنما على يد والده طريف بن مالك الذي ظل أميراً وحاكماً لبلاد تامسنا حتى عام ١٣١ هـ / ٧٤٨ م حسب تقديرات البكري الذي أتى بمسند السنين التي حكمها كل ملك من بني صالح^(٧٠) والتي يمكننا منها معرفة أن بداية حكم صالح بن طريف كان في عام ١٣١ هـ / ٧٤٨ م . وعلى ذلك فإن طريفاً يكون قد حكم في الفترة من عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م إلى ذلك العام وليس إلى عام ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م الذي حدده السلاوي لذلك ، لأن البكري أقدم من السلاوي بكثير^(٧١) .

وخلال هذه الفترة لم يشر المؤرخون إلى شيء ذي بال في بلاد تامسنا حيث أنه الأمور كانت قد استقرت لطريف في هذه البلاد ولغيره من البربر في بقية أنحاء المغرب الأقصى ، ذلك الدولة الأموية في هذه الفترة كانت مشغولة بالصراع الدامي الذي قام بين القيسية واليمانية في بلاد الشام والمشرق ، وبالدعوة العباسية التي ظهرت بوادرها منذ عام ١٢٩ هـ / ٧٤٦ م ، وكللت خطواتها بالنجاح في عام ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م حيث تم إسقاط الخلافة الأموية في ذلك العام وقامت الخلافة العباسية^(٧٢) .

أما في بلاد المغرب فقد استولى عبد الرحمن بن حبيب الفهري

(٦٨) تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٧

(٦٩) البيان المغرب ، ج ١ ص ٥٧

(٧٠) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١٣٦ - ١٣٧

(٧١) السلاوي : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٠٣

(٧٢) الطبري : تاريخه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،

دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ ، ج ٧ ص ٣٠ - ٣٢ ، ٢٦٢ - ٢٧٧ ،

٢٨٥ - ٢٩٣

على ولاية افريقية منذ عام ١٢٦ هـ / ٧٤٣ م وطرد عاملها وصار حاكما لها بالقهر والغلبة مستغلا ظروف دولة بنى أمية فى أيامها الأخيرة (٧٣) ، كما استولى طريف بن مالك على بلاد تامسنا بالمغرب الأقصى فى العام السابق ، وصار أميرا على البربر (٧٤) فى هذه البلاد وملكا عليهم ، ولم يكن ملكا على زفانة وزواغة كما قال البكرى (٧٥) لأنه ليس منهم ، الا اذا فهم هذا القول على أساس أنه كان ملكا على بربر تامسنا بصفة عامة بما فيهم بربر زفانة وزواغة الذين كانوا يشكلون جزءا من سكانها .

وكان طريف أيضا قائما على أمر الصفرية فى هذه البلاد (٧٦) بحكم أنه كان أحد قوادهم وحارب فى صفوفهم واشترك فى معاركهم التى خاضوها كلها منذ ظهور ميسرة وحتى هزيمتهم فى عام ١٢٥ هـ كما سبق القول ، « وكان على ديانة الاسلام » (٧٧) على مذهب الصفرية ، وظل قائما بأمر هذا المذهب حتى مات ، ولم يغير من عقيدته شيئا ولم يفعل ما أشار اليه ابن عذارى من أنه استغل جهل بربر تامسنا فلما قدموه على أنفسهم « شرع لهم ما شرع » ، لأن البكرى وهو أقدم منه بحوالى ثلاثة قرون من الزمان وكان معاصرا لنهاية دولتهم ، وهو أول من أعطاها عنها تفصيلات أخذها عنه ابن عذارى وابن خلدون لم يشر الى شيء من ذلك ، كما أن ابن عذارى نفسه أشار فى موضع آخر الى أن طريفا كان على دين الاسلام (٧٨) .

(٧٣) ابن عبد الحكيم : نفس المصدر ، ص ٢٢٣ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٧٠ ، الزقاق القيروانى : نفس المصدر ، ص ١٢٣ .

(٧٤) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٢٤ .

(٧٥) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٥ .

(٧٦) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٧ .

(٧٧) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥ .

(٧٨) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٧ ، ٢٢٤ .

ومعنى ذلك أن طريفا لم يشرع شرعا جديدا ولم يأت بما يعاب عليه أو يؤخذ عليه ، وظل وفيما لمذهبه ، وفيما لبنى وطنه محافظا على تاريخه ودوره فى فتح بلاد الأندلس حتى توفى عام ١٣١ هـ / ٧٤٨ م ، ولم يكن نصيبه نصيب القائد البربرى الشهير طارق بن زياد من غموض المصير وجهالة المنقلب . ذلك أن طريف بن مالك أسس دولة وترك أسرة حاكمة استمر وجودها قرونا من الزمان ، بينما لم تشر كتب التاريخ الى طارق بن زياد بشيء بعد انتهاء فتح الأندلس وعودة طارق وموسى الى دمشق ، اذ لف النسيان طارقا ولم نعد نسمع عنه شيئا بعد ذلك .

توفى طريف بن مالك وتولى ابنه صالح حكم بلاد تلمسان مدة طويلة تبلغ سبعة وأربعين عاما (١٣١ - ١٧٨ هـ / ٧٤٨ - ٧٩٤ م) ، مما يدل على قوته وقبول الناس لحكمه والامساك بحكم هذه المدة الطويلة . وقد أخبرنا ابن عذارى أنه ولد عام ١١٠ هـ / ٧٢٨ (٧٩) ، وأخبرنا ابن حوقل وهو أول من أشار اليه والى دوره فى تاريخ تلمسان أنه درس فى بلاد العراق وتعلم فيها « ودرس شيئا من النجوم وصلحت منزلته فى علمها الى أن قوم الكواكب وعمل التقاويم والموايد وأصاب فى أكثر أحكامه ، وكان له حظ حسن وفهم بأطراف من العلم » (٨٠) .

كما ذكر كل من البكرى^(٨١) وابن خلدون^(٨٢) بأنه « كان من أهل العلم والخير » . وقد سبق أن ذكرنا أنه اشترك مع أبيه طريف فى حروب الصفرية التى اندلعت بين عامى ١٢٢ هـ و ١٢٥ هـ ، اذ كان أبوه أحد كبار القواد الذين ساهموا فى هذه الحروب بسهم وافر ،

(٧٩) البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٢٤

(٨٠) صورة الأرض ، ص ٨٢

(٨١) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٣٥

(٨٢) تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٧

ولا بد أن الابن اتبع أباه في مواقفه السياسية والمذهبية ، فإذا كان طريف أحد الخارجين على الدولة الأموية متبعا المذهب الصفرى الذى يؤيد فكرة الخروج على أساس أن الحكم لا يكون بالضرورة فى القرشيين وحدهم بل هو حق مباح لمن يصلح من المسلمين سواء كان قرشيا أو غير قرشى ، عربيا أم غير عربى ، فإن ابنه صالحا لا بد وأن يكون صفرى المذهب مثل أبيه ، ولكننا نرى ابن حوقل الذى مات قبل الضربة الأولى التى وجهت الى بنى صالح فى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م بعام واحد ، والبكرى الذى عاصر الضربة الأخيرة التى قضت عليهم وعلى دولتهم فى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، يقولان بأن صالح بن طريف ابتدع دينا جديدا يضعه فى مصاف المرتدين والكفرة +

ونص ما قاله ابن حوقل أن صالحا دعا البربر فى قامسنا الى دين جديد « وذكر أنه نبى ورسول مبعوث اليهم بلغتهم واحتج بقول الله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم نبى حق عربى اللسان مبعوث الى قومه وإلى العرب خاصة ، وأنه صادق فيما أتى به من القرآن والأحكام » وإياه (أى صالح بن طريف) أراد الله عز وجل بقوله : « وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » ووعدهم غير كسوف فوجلوه ، وألذرهم غير شيء فأدركوه وأصابوه على حكايته ، فأفسد عقولهم وبدل معارفهم وافترض عليهم طاعته فى سنن ابتدعها وأحوال فرضها واخترعها وأوجب عليهم صوم شعبان وافتطار شهر رمضان ، وعمل لهم كلاما رتلته بلغتهم وشرع فيهم محابه على نحلتهم ، فهم يتدارسونه ويعظمونه ويصلون به » (٨٣) + ثم يقول ابن حوقل فى موضع آخر « كان صالح يحل لهم الطيبات ويبيحهم اللذات ويسوسهم فى المحظورات » (٨٤) +

(٨٣) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٦٢

(٨٤) المصدر السابق ، ص ٨٣

وزيد البكرى الأمر وضوحا فيقول عن صالح بن طريف أنه « عهد الى (ابنه) الياس بدياته وعلمه شرائعه وفقهه في دينه وأمره أن لا يظهر ذلك الا اذ قوى وآمن فانه يدعو الى ملته ويقتل من خالفه ، وأمره بموالاة أمير الأندلس ، وخرج الى المشرق ووعد أنه ينصرف اليهم في دولة السابع من ملوكهم ، وزعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال ، وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه ويصلى خلفه ، وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت (كذا) جورا ، وتكلم لهم في ذلك كلاما كثيرا نسبته الى موسى الكليم عليه السلام ، والى سطيح الكاهن ، والى ابن عباس ، وزعم أن اسمه في العرب صالح ، وفي السرياني مالك ، وفي الأعجمي عالم ، وفي العبراني ورييا^(٨٥) ، وفي البربرية ورياورى^(٨٦) أى الذى ليس بعده شيء^(٨٧) ، أو الذى ليس بعده نبى^(٨٨) .

وفصل البكرى أمر هذه الديانة التى نسبت الى صالح بن طريف والتى ظهرت فى عهد حفيده يونس (٢٢٨ - ٢٧١ هـ / ٨٤٢ - ٨٨٤ م) بأن القوم وقتذاك كانوا « يقدمون مع الاقرار بالنبيين والاقرار بنبوة صالح بن طريف ونبوة من تولى الأمر بعده من ولده ، وأن الكلام الذى ألف لهم وحى من الله تعالى لا يشكون فيه تعالى الله عن ذلك ، وصوم رجب^(٨٩) ، وأكل شهر رمضان ، وخمس صلوات فى اليوم وخمس صلوات فى الليلة ، والتضحية^(٩٠) فى اليوم الحادى عشر من المحرم » .

(٨٥) رويبا عند ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٧

(٨٦) رويبا عند ابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٧

(٨٧) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥ - ١٣٦

(٨٨) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٧

(٨٩) صوم شهر شعبان عند ابن حوقل ، ص ٨٢

(٩٠) الضحية عند ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٦ ، والمقصود هى الاضحية التى ينحرها المسلمون يوم عيد الاضحية .

« وفي الوضوء غسل السرة والخاصرتين ثم الاستنجاء ثم المضمضة وغسل الوجه ومسح العنق والقفاء وغسل الذراعين من المنكبين ومسح الرأس ثلاث مرات ومسح الأذنين كذلك ثم غسل الرجلين من الركبتين ، وبعض صلواتهم ايماء بلا سجود وبعضها على كيفية صلاة المسلمين ، وهم يسجدون ثلاث سجعات متصلة ويرفعون جباههم وأيديهم عن الأرض مقدار نصف شبر » .

« واحرامهم أن يضع احدى يديه على الأخرى ويقول ابسمن ياكوش تفسيره بسم الله ، مقر ياكوش تفسيره الكبير الله ، يضعون أيديهم مبسوطة في الأرض طول ما يتشهدون ويقولون (كذا) نصف قرآنهم في وقوفهم ونصفه في ركوعهم ويقول (كذا) في تسليمهم بالبربرية الله فوقنا لم يغب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ثم يقول (كذا) مقر ياكش خمسا وعشرين مرة ، ايحن ياكش مثل ذلك ، ومعناه الواحد الله ، وردام ياكش مثل ذلك ومعناه لا أحد مثل الله » .

« وهم يجمعون يوم الخميس ضحا وصيام يوم من كل جمعة فرض من فروضهم ، ويصوم الجمعة الأخرى التي تليه أبدا ويأخذون العشر في الزكاة من جميع الحبوب ولا يأخذون من المسلمين شيئا ، ويتزوج من النساء ما استطاع على مبايعتهن والاتفاق عليهن بلا حد عدد ، وأن لا يتزوج من بنات عمه الى ثلاثة جدد ، ولا يتسرون ولا ينكحن للمسلمين ولا ينكحون منهم ، ويطلقون ويراجعون ما أحبوا » .

« ويقتل السارق بالاقرار وباليمين ، والدية عندهم ما به من البقر ، ورأس كل حيوان عليهم حرام ، والحيوت لا يوكل الا أنه يذكي ، والبيض عندهم حرام والدجاج مكروهة الا أن يضطر عليها ، وليس عندهم أذان ولا اقامة ، وهم يكتفون في معرفة الأوقات بزفاء الديوك^(٩١) ، ولذلك

(٩١) زفاء الديوك تعنى صراخ الديكة . انظر : ابن عذارى ج ١ ص ٢٢٧

هرموها ، وكان ييصق فى أيديهم فيلقونه تبركا به ويحملون بصاقه
الى مرضاهم يستشفون به « (٩٢) » .

ويواصل البكرى كلامه عن دياتهم أو مذهبيهم فيقول : « قرآنهم
الذى وضع لهم صالح بن طريف ثمانون سورة أكثرها منسوبة الى أسماء
النبيين من لادن آدم ، أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس ، وفيها
سورة فرعون وسورة قارون وسورة هامان وسورة ياجوج ومأجوج
وسورة الدجال وسورة العجل وسورة هاروت وماروت وسورة طالوت
وسورة نمرود ، وما أشبه هذه من الأقاصيص ، وسورة الديك وسورة
الحجل وسورة الجراد وسورة الجمل وسورة الحنش ، وكان يمشى على
ثمانية أرجل ، وفيها سورة غرائب الدنيا ، وهناك العلم العظيم
عندهم » (٩٣) .

وذكر البكرى كلمات مترجمة من أول سورة أيوب التى يبدأ بها
كتابهم كما يقول (٩٤) . ولا شك أن أقوال البكرى التى استعرضناها
ينصها هى أقوال تخرج الإنسان دون شك عن الاسلام وتجعله من
المرتدين ، وتجعل دولة بنى صالح دولة مرتدة وكافرة . فهل كان بنو صالح
وقومهم من برغواطة على هذا النحو ؟ وهل ارتدوا فعلا عن الاسلام
واعتبروا من الكفرة ؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات وبيان حقيقة أمرهم يمكننا أن
نضع أمامنا النقاط الآتية فى محاولة لمناقشة هذا الموضوع :

أولا — فلاحظ أن أول من أشار الى دياتهم تلك هو ابن حوقل
الذى توفى عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م . أما المؤرخون والجغرافيون السابقون
عليه واللاحقون له فلم يذكروا شيئا عن هذه الديانة ولا شيئا عن

(٩٢) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .

(٩٣) المصدر السابق ص ١٤٠ .

(٩٤) المصدر السابق ونفس الصفحة .

برغواطة عدا البكرى ومن أخذ عنه والذين يمثلون فى ابن عذارى
وابن خلدون .

فابن عبد الحكيم الذى توفى عام ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م والذى كان
معاصرا لدولة بنى صالح أثناء ازدهارها تحدث عن فتوحات مصر
والمغرب والأندلس ، وتحدث عن فتوحات العرب فى بلاد المغرب الأقصى
وذكر ثورات الصفرية والأباضية فى طول بلاد المغرب وعرضها^(٩٥)
ولكنه لم يذكر برغواطة ولم يذكر شيئا عن أى ديانة أتت بها .

كما أن البلاذرى الذى توفى عام ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م كان هو الآخر
معاصرا لدولة بنى صالح حين ازدهارها وتحدث عن الفتوحات الإسلامية
فى بلاد المغرب الأقصى ، وأشار الى فتوحات المسلمين فى بلاد السوس
الأدنى والتى تعتبر بلاد تامسنا جزءا منها وأشار الى انتشار الاسلام
فى هذه البلاد والى غلبة الأباضية على بلاد افريقية وثورات الخوارج
فى بلاد المغرب الأقصى^(٩٦) ، ولكنه لم يشر مطلقا الى برغواطة ولا الى
دين جديد أتت به .

وكذلك كان موقف اليعقوبى المتوفى عام ٢٧٢ هـ / ٨٩٥ م والذى
كان هو الآخر معاصرا لدولة بنى صالح وسابقا على ابن حوقل بأكثر من
قرن من الزمان وصاحب التاريخ المنسوب اليه وصاحب كتاب فى الجغرافيا
يعرف بكتاب البلدان الذى أخذ منه كتاب آخر يعرف باسم صفة المغرب ،
ذلك أننا لا نجد ذكرا للأى دين أو عقيدة تخالف عقيدة الاسلام فيما كتبه
اليعقوبى عن بلاد المغرب الأقصى . وعندما أشار فى كتابه الأخير الى قيام
محمد بن ادريس بن ادريس بتوزيع أقاليم المغرب على اخوته ، وتحدث
عن السوس الأقصى ، وعن سجلماسة^(٩٧) فإنه لم يشر مطلقا الى تامسنا

(٩٥) ابن عبد الحكيم : نفس المصدر ، ص ٢٠٥ ، ٢١٨ - ٢٢٢

(٩٦) البلاذرى : نفس المصدر ص ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩

(٩٧) اليعقوبى : صفة المغرب ، مطبعة بريل ، سنة ١٨٥٠ ، ص ١٢١

ولما الى برغواطة التي قيل ان زعماءها من بنى صالح هم الذين أتوا بهذا الدين الجديد الذي يعتبر ردة عن الاسلام .

ومن الجغرافيين السابقين أيضا على ابن حوقل ، ابن خرداذبة الذي توفي حوالي عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ، وكان معاصرا أيضا لدولة بنى صالح أيام ازدهارها ، ولكنه هو الآخر لم يشر مطلقا لبرغواطة حتى بالاسم ، ولم يشر الى ما نسب الى بنى صالح من ديانة . فقد أشار الى السوس الأدنى حين حديثه عن بلاد المغرب الأقصى وهي بلاد برغواطة ومقر دولة بنى صالح وقال ان أهلها بربر^(٩٨) ، وحين حديثه عن قبائل هؤلاء البربر ذكر مصمودة التي تنسب اليها برغواطة ، كما ذكر غيرها من القبائل التي كانت تشكل دولة بنى صالح مثل غمارة ومطماطة وتفزة^(٩٩) ، ولكنه لم يذكر برغواطة حتى بالاسم .

أما المعاصرون لابن حوقل من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين فلم يسيروا الى برغواطة ولا الى ما أتت به من ديانة ، فالأصطخرى الذي توفي قبل عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م تحدث عن السوس الأقصى وعن اقليم طنجة أو كورة طنجة وقال انه مدينتها العظمى تسمى فاس^(١٠٠) ، ولم يذكر السوس الأدنى باسمه وانما اعتبر هذا السوس هو نفسه اقليم طنجة التي جعلها تمتد لتشمل اقليم فاس الذي يعتبر السوس الأدنى جزءا منه . وعلى ذلك فانه لم يشر الى برغواطة وانما ذكر مصمودة وقال انها من بربر بلاد المغرب والأندلس^(١٠١) ، كما ذكر مذاهب أهل المغرب الدينية فقال ان « الغالب على مذاهب أهل المغرب كلهم مذاهب الحديث

(٩٨) المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٨٩

(٩٩) المصدر السابق ، ص ٩٠

(١٠٠) المسالك والممالك للأصطخرى ص ٣٤

(١٠١) المصدر السابق ص ٣٦

أغلبها عليهم فى الفتيما مذهب مالك بن أنس^(١٠٣) ، وأشار الى مذاهب
خرى تخالف هذا المذهب مثل المذهب الأباضى الذى كان منتشرا فى قاهرت
كأن غالبا عليها^(١٠٣) ، ولكنه لم يذكر هذه الديانة التى قيل انها كانت
منتشرة فى بلاد تامسنا (السوس الأدنى) وان بنى صالح بن طريف
بتدعوها ، مع أن هذه الديانة كانت جديدة بالذكر نظرا لسمتها التى وصفت
بها والتى تلفت اليها نظر المؤرخ أو الكاتب دون شك ، ولا تجعله ينأى
نهما بالذكر أو التدوين .

وكذلك فعل المقدسى المتوفى عام ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م والذى كان
معاصرا لبنى صالح ودولتهم فى تامسنا ، فقد تحدث عن إقليم السوس
لأدنى الذى جعله يمتد من سبته الى طنجة وجنوبا الى سلا ، وجعله
بشتمل بذلك على بلاد تامسنا وقال ان قصبته هى فاس ، وأشار الى مدنه
التى كان منها سلا ومنها مطماطة^(١٠٤) التى كانت جزءا من بلاد تامسنا ،
كما ذكر غير ذلك من المدن الأخرى ولكنه لم يذكر تامسنا ولا برغواطة
بالاسم ، ولم يشر الى هذه الديانة التى كان معاصرا لها والتى ذكرها
ابن حوقل الذى توفى قبله بأقل من ثلاثين عاما .

واذا اقتطنا بعد ذلك الى من آتوا بعد ذلك من الرحالة والمؤرخين
فجد أن الادريسي المتوفى عام ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م أشار الى تامسنا
وبلادها وذكر برغواطة وغيرها من القبائل التى كانت تعيش فى هذه
البلاد^(١٠٥) ، ولكنه لم يشر مطلقا الى دين ايتدعته برغواطة وقام عليه
بنو صالح البرغواطيون ، رغم أنه أشار الى المذاهب التى اقتشرت فى
بلاد المغرب الأقصى حتى فى الجزء الجنوبى منه وهو السوس الأقصى ،

(١٠٢) المصدر السابق ص ٣٧

(١٠٣) المصدر السابق ص ٣٤ ، ٣٧

(١٠٤) المقدسى : نفس المصدر ص ١٨٤

(١٠٥) نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٣٦ - ٢٤٠

فقال : « أهل السوس فرقتان ، فأهل مدينة تارودنت يتمذهبون بمذهب المالكية من المسلمين وهم حشوية ، وأهل بلد تويرين يقولون بمذهب موسى بن جعفر (أى شيعة) وبينهم أبدا القتال والفتنة وسفك الدماء وطلب الشار » (١٠٦) .

كما أشار الادريسي الى دعوة الموحدين الذين قامت دولتهم في جبل درن (أطلس) على أيدي المصامدة (١٠٧) الذين ينسب اليهم مصامدة تامسنا ومنهم برغواطة . وقد انتقد الادريسي الموحدين حين حديثه عن تغلبهم على مدينة مراکش فقال انهم « تركوا الجامع الذى كان يوسف ابن تاشفين قد بناه عظلا مغلق الأبواب لا يرون الصلاة فيه ، وصنعوا لأنفسهم مسجدا جامعا يصلون فيه بعد أن هبوا الأموال وسفكوا الدماء وباعوا الحرم ، كل ذلك بمذهب لهم يرون ذلك فيه حالا » (١٠٨) .

كما انتقد غمارة — احدى قبائل المصامدة — التى كانت تسكن فى بلاد الريف من سبتة الى مرسى أنزلان وتمتد ديارها جنوبا حتى قرب فاس فقال ان « الله طهر منهم الأرض وأفنى جمعهم وخرب ديارهم لكثرة ذنوبهم وضعف اسلامهم وكثرة جرأتهم واصرارهم على الزناء . . . وقتل النفس بغير الحق » (١٠٩) .

ومع ذلك فلم يشر الادريسي اطلاقا الى دين برغواطة أو الى عقيدتها ولم يذكرها لا بكثير أو قليل ، رغم أنه ما كتبه ابن حوقل والبكرى عن هذه الديانة كان متاحا له ، بدليل أن من أتى بعلمه مثل ابن عذارى الذى عاش فى القرن السابع الهجرى وابن خلدون الذى عاش فى القرن التالى

(١٠٦) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٨

(١٠٧) المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٠

(١٠٨) المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٤

(١٠٩) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٣٢

نقلا ما قاله ابن حوقل والبكرى ، مما يدل على أن الادريسي كان في مكنته أين ينقل عنهما كما نقل ابن عذارى وابن خلدون ، ولكنه هو ومن سبقوه ممن أشرنا اليهم لم يفعلوا ، ليس الآن أخبار بنى صالح وبرغواطة كانت مغيبة عنهم ، ولكنهم رأوا — على الأرجح — أنه من غير المجدي أن يتحدثوا عن هذه الأخبار اما لأنها مختلفة أو غير قابلة للتصديق أو غير جديرة بالذكر والتدوين .

ثانياً — يضاف الى ذلك هذا التضارب الذى ورد عند ابن حوقل والبكرى وابن عذارى فى أمر نسبة هذه الديانة ، فتارة ينسبونها الى طريف بن مالك كما أشار بذلك ابن عذارى^(١١٠) ، وتارة أخرى ينسبونها الى صالح بن طريف كما قال بذلك ابن حوقل^(١١١) والبكرى^(١١٢) غير أن البكرى يزيد فى أمر هذا التضارب حين يأتى بروايتين متناقضتين فيما يتعلق بمبتدع هذه الديانة ، احدهما استقاها عن أبى صالح زمر ابن موسى بن هشام البرغواطى صاحب الصلاة لدى حكام برغواطة وتامسنا من بنى صالح والذى وفد على الحكم المستنصر الخليفة الأموى بالأندلس فى عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م رسولا من قبل صاحب برغواطة وملك تامسنا المسمى أبى منصور عيسى ، فقد أخبر هذا الرسول عن طريق المترجم الذى صحبه أن هذه الديانة تسب الى صالح بن طريف (١٣١ — ١٧٨ هـ / ٧٤٨ — ٧٩ م) الذى « تنبأ وشرع لهم الديانة التى هم عليها الى اليوم »^(١١٣) .

أما الرواية الثانية فتشير الى أن مبتدع هذه الديانة هو يونس حفيد صالح بن طريف والذى حكم فى الفترة (٢٢٨ — ٢٧١ هـ /

(١١٠) البيان المغرب ج ١ ص ٥٧

(١١) صورة الأرض ص ٨٢

(١١٢) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٣٥

(١١٣) المصدر السابق ص ١٣٤ ، ١٣٥

٨٤٢ — ٨٨٤ م) • وقد استقى البكرى هذه الرواية من أبي العباس فضل بن مفضل بن عمرو المنحجي الذي قال « أن يونس القاسم بدين برغواطة أصله من شنونة من وادي بربط (بالأندلس) وكان قد رحل إلى المشرق في عام واحد مع عباس بن ناصح وزيد بن سنان الزقاتي صاحب الواصلية ، وبرغوت بن سعيد الترابي وجد بني عبد الرزاق ويعرفون ببني وكيل الصفرية ، ومناد صاحب المنادية المنسوب إليه القلعة المعروفة بالمنادية قريبا من سجلماسة ، وآخر ذهب عنى اسمه ، فأربعة منهم فقهوا في الدين وادعا (كذا) ثلاثة منهم النبوة منهم يونس صاحب برغواطة » (١١٤) •

ويضيف البكرى قائلا أن « يونس شرب دواء الحفظ فلحق كل ما سمع وحفظه وطلب علم النجوم والكهانة والجاذب وفطر في الكلام والجدال وأخذ ذلك عن غيلان ، ثم انصرف يريد الأندلس فنزل بين هؤلاء القوم من زفاعة ، فلما رأى جهلهم استوطن بلدهم وكان يخبرهم بأشياء قبل كونها مما تدل عليه النجوم عندهم فتكون على ما يقول أو قريبا منه ، فعظم عندهم ، فلما رأى ذلك منهم وعرف ضعف حلومهم وسخافة عقولهم أظهر دياقته ودعا إلى نبوته وسمى من اتبعه بربطى لما كان من بربط ، ثم أحالوه بالسنتهم وردوه إلى لغاتهم فقالوا برغواطى » (١١٥) •

ثم يأتي بعد ذلك فضل بن مفضل بشعر رواه عن شخص من مصمودة في عهد أبي غفير الذي حكم في الفترة (٢٧١ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٤ — ٩١٢ م) يلد على أن يونس هو صاحب هذه الديانة حيث يقول هذا الشاعر (١١٦) :

سيعلم قوم تأسنى إذا ما أتوا يوم النشور مهيميننا
هناك يونس وبنوا أييه يتودون البرابر مهطعينا

(١١٤) المصدر السابق ص ١٣٧

(١١٥) المصدر السابق ص ١٣٧ ، ١٣٨

(١١٦) المصدر السابق ص ١٣٨

ونفس الكلام الذى أورده البكرى عن رحلة يونس الى بلاد المشرق وعن دراسته لعلم النجوم والكواكب أورده ابن حوقل بالنسبة لجده صالح بن طريف ، وقال ان صالحا دخل العراق ودرس شيئا من النجوم وصلحت منزلته فى علمها الى أنه قوم الكواكب وعمل التقاويم والمواليد وأصاب فى أكثر أحكامه «(١١٧)» ، مما يدل على خلط كبير بين طريف ابن مالك وابنه صالح بن طريف ، ويونس بن الياس بن صالح عند أقدم من أشاروا الى أمر هذه الديانة وهما ابن حوقل والبكرى ، ويدل بالتالى على أن هذه الديانة لا يعرف مبتدعها أو مؤسسها على وجه التحديد وعلى وجه اليقين والتأكد ، فهو مرة طريف بن مالك ، ومرة ثانية ابنه صالح بن طريف ، ومرة ثالثة يونس حفيد صالح بن طريف .

كما يفهم من الرواية الأولى التى أوردها البكرى والتى أسندت أمر هذه الديانة الى صالح بن طريف أن صالحا هذا لم يظهر هذه الديانة وأوصى بها ابنه الياس بعد أن علمه شرائعه وفقهه فى دينه وأمره ألا يظهر هذا الدين الا اذا صار حاكما قويا وأمن جيرانه والملوك المحيطين به ، حينئذ يمكنه أن يدع الى نخلته أو ملته ويقتل من خالفه ، ثم تركه بعد أداء هذه النصيحة وخرج الى المشرق «(١١٨)» ، فتولى الياس الأمر بعد خروج أبيه وأظهر ديانة الاسلام وأسر ما عهد به أبوه اليه خوفا وتقية «(١١٩)» حتى مات بعد أن ملك خمسين عاما ، وتولى الأمر بعده ابنه يونس (٢٢٨ — ٢٧١ هـ / ٨٤٢ — ٨٨٤ م) فأظهر هذه الديانة ودعا اليها وقتل من لم يخل فيها «(١٢٠)» .

ومعنى ذلك أن أمر ديانة برغواطة ظل طى الخفاء والكتمان

(١١٧) ابن حوقل : نفس المصدر ص ٨٢

(١١٨) البكرى : نفس المصدر ص ١٣٥

(١١٩) المصدر السابق ص ١٣٦

(١٢٠) المصدر السابق ونفس الصفحة .

مدة بلغت قرنا من الزمان أو أكثر من قرن ، اذ أن صالح بن طريف تولى أمر برغواطة وبلاد تامسنا في عام ١٣١ هـ / ٧٤٨ م وحكم حتى عام ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م ، وتولى حفيده يونس حكم هذه البلاد في عام ٢٢٨ هـ / ٨٤٢ م وظل يحكمها حتى مات في عام ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م . ومن الواضح أن ديانة لا يمكن أن يظل أمرها سرا مكتوما طوال هذه المدة الكبيرة بحيث لا يدرى بها أحد من الناس سواء من الحكام والملوك المجاورين لهم أو من الأهالي العاديين ، فلم نعلم هذا الأمر في تاريخ الديانات أو في تاريخ العقائد والمذاهب سواء الدينية أو حتى الاجتماعية أو السياسية .

ثالثا — وهذا يجرنا الى موقف الدول المجاورة من هذه الديانة وأتباعها فيما لو صح ما قاله ابن حوقل والبكري عنها . فلو وجدت مثل هذه الديانة وصح ما قاله البكري من أن أمرها لم يظهر الا في عهد يونس (٢٢٨ — ٢٧١ هـ / ٨٤٢ — ٨٨٤ م) لعرفنا أن الدول المجاورة لبلاد تامسنا التي كانت مهد هذه الديانة تتمثل في دولة الأدارسة التي كانت قد قامت في بلاد المغرب الأقصى منذ عام ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م وظلت في حكمه كله أو بعضه حتى عام ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م حتى تم القضاء عليها وتتمثل أيضا في الدولة الفاطمية التي كانت قد قامت في بلاد افريقية والمغرب الأوسط منذ عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م ، كما تتمثل في الأمويين الذين قامت دولتهم في بلاد الأندلس منذ عام ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م .

ومعروف أن الفاطميين والأمويين ظلوا يتصارعون حول السيطرة على بلاد المغرب الأقصى ويصطدمون بالأدارسة مرة بعد أخرى ويحاول كل منهما السيطرة عليهم وعلى بلادهم ، مما أدى الى ضعفهم والى بروز قوى محلية من البربر تتمثل في ملوك فاس من زقاة الذين كان يقف على رأسهم موسى بن أبي العافية^(١٢١) ، وتتمثل في ملوك تامسنا من بني صالح بن طريف من برغواطة المصمودية والذين أسسوا دولتهم حتى قبل أن تظهر دولة الأدارسة أو دولة الأمويين أو دولة الفاطميين .

(١٢١) ابن خلدون : نفس المصدر ج ٤ ص ١٦ ، ج ٦ ص ٢١٧، ٢١٦

وقد سبق القول أن الأدارسة استطاعوا أن يستكملوا حركة نشر الإسلام بين قبائل البربر في المغرب الأقصى^(١٢٣) ، وبسطوا حكمهم وسلطانهم على هذه البلاد وخاصة في الفترة الأولى من حكمهم والتي امتدت من عام ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م إلى وفاة علي بن محمد بن إدريس الثاني في عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م^(١٢٣) . وقد وصل نفوذهم حتى سجلماسة في عصر اليعقوبي الذي توفي عام ٢٧٢ هـ / ٨٩٥ م^(١٢٤) ، وجاوز هذا النفوذ بلاد المغرب الأقصى إلى الصحراء الكبرى التي تفصل بلاد المغرب عن بلاد السودان^(١٢٥) .

كما سبقت الإشارة إلى أن إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة افتتح بلاد تامسنا^(١٢٦) مهد دولة بني صالح ومقر قبيلة برغواطة ، كما أن حفيده محمد بن إدريس الثاني بعد أن تولى حكم بلاد المغرب الأقصى في عام ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م وزع هذه البلاد على أخوته ، فكانت بلاد تامسنا من نصيب أخيه عيسى ، ولما خرج عيسى على أخيه محمد مطالبا بحكم البلاد كلها بعث محمد أخاه عمر لقتاله فأوقع به عمر وغلبه على ما في يده من بلاد وضمها إلى بلاده التي اتسعت حتى شملت الريف البحري كله والتي امتدت من تكيثاش وبلاد غمارة إلى سبتة وطنجة والبلاد التي تمتد على ساحل المحيط الأطلسي مشتملة على سلا وأزمور وبلاد تامسنا^(١٢٧) ، وظل عمر في حكم هذه البلاد حتى مات في عام ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م فعقد الأمير محمد على عمله لولده علي بن عمر^(١٢٨) الذي ظل في حكم هذه

(١٢٢) انظر : ص ٢٤ ، ٢٥

(١٢٣) ابن خرداذبة : نفس المصدر ص ٨٩

(١٢٤) اليعقوبي : نفس المصدر ، ص ١٢١

(١٢٥) حسن إبراهيم حسن : نفس المرجع ج ٢ ص ٢٢٦

(١٢٦) انظر : ص ٢٤

(١٢٧) ابن خلدون : نفس المصدر ج ٤ ص ١٤

(١٢٨) المصدر السابق ج ٤ ص ١٤

البلاد فيما بقي من مدة حكم الأمير محمد الذي توفي عام ٢٢١هـ / ٨٣٦م وطوال عهد ابنه علي (٢٢١ - ٢٣٤ هـ / ٨٣٦ - ٨٤٨ م) وعهد أخيه يحيى بن محمد الذي حكم من عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م ولمدة غير معروفة ، ثم في عهد ابنه يحيى بن يحيى الذي أساء السيرة فثار الناس عليه واستدعوا ابن عمه علي بن عمر صاحب بلاد الريف ، فجاء الى فاس ودخلها وبايعوه واستولى على أعمال المغرب (١٢٩) .

ومعنى ذلك أن بلاد تامسنا كانت فى طاعة ملوك الأدارسة ثم فى طاعة أمراءهم الذين يحكمون من قبلهم والذين يتمثلون فى عيسى بن ادريس الثانى ، وعمر بن ادريس الثانى ، وابنه على بن عمر ، والواقع أن هذه الطاعة كانت طاعة اسمية أو شكلية بدليل قيام ملك وراثى لبنى صالح فى تامسنا كان موجودا قبل قيام دولة الأدارسة نفسها بحوالى نصف قرن من الزمان ، وظل موجودا بعد نهاية دولة الأدارسة بحوالى قرن من الزمان .

والراجح أن بنى صالح اعترفوا للأدارسة أثناء عصر قوتهم بهذه الطاعة الاسمية على أن يتركوهم يحكمون بلادهم حكما مستقلا تماما عن أى نفوذ ادريسي ، وسواء كان بنو صالح مستقلين استقلالاً ذاتياً أو استقلالاً تاماً عن الأدارسة فهل كان فى مكنتهم أن يبتدعوا ديانة جديدة تخالف عقائد الاسلام ، وأن يظلوا على هذه الديانة طوال عهد دولة الأدارسة دون أن يتعرض الأدارسة لهذه العقيدة ولهذه الدولة بالقتال حتى يسود الاسلام كل أرض بلاد المغرب الأقصى ، خاصة وأن المؤرخين وكما سبق القول يشيرون الى أن هؤلاء الأدارسة كانوا دعاة الى الاسلام ، وهم الذين استكملوا حركة نشره فى هذه البلاد . من المستبعد تماما أن يترك الأدارسة دينا مثل دين برغواطة ينمو ويتسع ، ويحارب القائمون عليه المدن المجاورة ويقتلون أهلها اذا لم

يدخلوا في هذه الديانة ، فقد ذكر البكري أن يوس حارب أكثر من ٣٨٧ مدينة وحمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إياه وقتل منهم سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلا في موضع يقال له (قاملو كاف) ، وقتل من صنهاجة في وقعة واحدة الآلاف المؤلفة (١٣٠) * كما قام ابن أخيه أبو عفير الذي تولى بعده حكم بلاد تامسنا (٢٧١ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٤ — ٩١٣ م) بمحاربة جيرانه في وقائع مشهورة منها وقعة استمرت ثمانية أيام قتل فيها أبو عفير عددا هائلا من الناس حتى فاضت الطرق بدمائهم (١٣١) *

هذا في الوقت الذي لم نسمع فيه عن قيام قتال بين بنى صالح وبين الأدارسة سواء في فترة قوة هؤلاء الأدارسة (١٣٢) ، أم في عهد ضعفهم حينما تسلط عليهم الفاطميون مرة وتسلط عليهم الأمويون مرات الا في بعض الأوقات (١٣٣) التي هاجم فيها الأدارسة بنى صالح * ولم تكن هذه الهجمات القليلة أو النادرة التي لم يذكر عنها المؤرخون أى تفاصيل بسبب المخالفة في الدين أو المذهب بقدر ما كانت بسبب اهتمام الأدارسة بفرض نفوذهم على كل بلاد المغرب الأقصى ، وبسبب تصميم أهل تامسنا الأشداء على الاستقلال ببلادهم والمحافظة على كياناتهم ودولتهم ، يفسر ذلك ما قاله ابن حوقل من أن « بلادهم مستقل بنفسه عن الحاجة الى ما في غيره ، لأنهم أهل شدة وبأس وصبر على القلاء والمراس » (١٣٤) *

فهى أذن حرب سياسية وليست حربا من أجل الدين * وعلى كل حال فقد كانت هذه الحرب لا تأخذ صفة الدوام والاستمرار ، فقد ثارت

(١٣٠) البكري : نفس المصدر ص ١٣٦

(١٣١) المصدر السابق ص ١٣٦

(١٣٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ٧ ص ٧١

(١٣٣) ابن حوقل : نفس المصدر ص ٨٣

(١٣٤) المصدر السابق ص ٨٣

مرة أو مرتين ولم تلبث أن انتهت وحل السلام والوثام بين الفريقين ، بدليل ما أشار اليه ابن حوقل نفسه من قيام علاقات تجارية بين بنى صالح وفاس فى عهد الأدارسة حيث قال ابن أهل « مدينة فاس — كاقوا — يغزونهم فى بعض الأوقات ويسالمونهم ويتاجرونهم ويجلبون اليهم التجارات على ما يرونه ولاتهم » (١٣٥) .

ونفس هذه العلاقات التجارية قامت أيضا بين بنى صالح وبين بقية بلاد المغرب الأقصى حيث أشار ابن حوقل الى أن « أهل أنصتات والسوس يصلون اليهم أيضا بالتجارة ، كذلك قامت علاقات تجارية بين بنى صالح وبين دولة بنى مدرار الصفرية فى سجلماسة » (١٣٦) . ولما حاول أحد حكام هذه الدولة وهو محمد بن الفتح المعروف بالشاكر لله محاربتهم ودعا الى غزوهم فى عام ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م لم يستجب له الا عدد قليل من البربر لا يستطيع أن يقوم بهذا الغزو ربما « خوفا من اطراد حيلة لمحمد بن الفتح عليهم فى ذلك » (١٣٧) .

وكذلك لم نسمع أن الفاطميين قاموا بغزو بلاد تامسنا بسبب أن هذه البلاد كانت تقوم فيها دولة كافرة أو مرتدة ، بل بسبب الصراع والتسابق بينهم وبين الأمويين حول السيطرة على بلاد المغرب الأقصى برمتها ومنها بلاد تامسنا ، لأنه لم يرد فى المصادر الفاطمية ما يؤيد ذلك أو يشير اليه .

أما علاقات بنى صالح بالأمويين فى بلاد الأندلس فامر ثابت . فالعلاقات الدبلوماسية والمودة والصداقة بين الفريقين كانت أمرا معروفا وقائما منذ قيام دولة بنى صالح فى تامسنا وقيام دولة الأمويين فى الأندلس . فعلاقات المودة بينهما كانت استراتيجية اتبعتها بنو صالح

(١٣٥) المصدر السابق ص ٨٣

(١٣٦) المصدر السابق ص ٨٣

(١٣٧) المصدر السابق ص ٨٣

منذ أن قامت دولتهم لموازنة علاقتهم بالقوى الأخرى المحيطة بهم من أدارسة و فاطميين و مدراريين وغيرهم ، وتوفيراً لقدر من الحماية يطمئن بنى صالح من خطر هذه القوى إذا ما فكرت في غزو بلادهم ، ولذلك لم نسمع كما قلنا عن غزوات مدمرة أو غزوات تأخذ صفة الدوام والاستمرار قامت بها هذه القوى ضد بنى صالح حتى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م ، أى بعد قرنين ونصف قرن من قيام دولتهم .

وقد أشار البكرى الى هذه الاستراتيجية حينما قال ان صالح بن طريف وهو قاضى ملوكهم أوصى ابنه الياس « وأمره بموالة أمير الأندلس » ، وذلك عندما ترك صالح حكم بلاد تامسنا وخرج الى المشرق (١٣٨) . ويتكرر هذا الأمر فى عهد سادس ملوكهم وهو عبد الله أبو الأنصار (٣٠٠ - ٣٤١ هـ / ٩١٢ - ٩٥٢ م) الذى أوصى ابنه أبا منصور عيسى قبل موته « بموالة صاحب الأندلس » (١٣٩) .

ويبدو أن أمر هذه التوصية بهذه الموالة كان أمر تقليدياً حتى قال البكرى أن جميع المرشحين لتولى ملك بلاد تامسنا كانوا يوصون بذلك (١٤٠) . ووفادة زمور من قبل أبى منصور عيسى ملك تامسنا الى الحكم المستنصر الأموى فى عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م خير دليل على ذلك (١٤١) ، بل انه البكرى وكما سبق القول أشار فى إحدى رواياته الى أن بنى صالح بربر أتوا من وادى برباط بالأندلس الى تامسنا وكانوا قد سكنوا الأندلس بعد فتحها ولذلك سموا برباطيين ، وتحرفت هذه الكلمة برغواطين (١٤٢) .

-
- (١٣٨) البكرى : نفس المصدر ص ١٣٥ ، ابن عذارى : نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٤ .
 (١٣٩) البكرى : نفس المصدر ص ١٣٧ .
 (١٤٠) المصدر السابق ص ١٣٧ .
 (١٤١) المصدر السابق ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، ابن عذارى : نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٣ .
 (١٤٢) البكرى : نفس المصدر ص ١٣٧ .

فالعلاقات بين بنى صالح البرغواطيين وبين الأمويين فى الأندلس كانت قديمة وقوية ومتصلة وليس من المعقول أن يقبل الأمويون بهذه العلاقة اذا ما كان بنو صالح مرتدين عن الاسلام حسب قول ابن حوقل والبكرى ومن تابعهما من المؤرخين اللاحقين ، وليس من المعقول أيضا أن يخبر رسول ملك تامسنا خليفة الأندلس عند وفادته اليه فى عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م بأمر هذه الديانة التى تعتبر دون شك خروجاً عن الاسلام وردة عنه ، لأن هذا الأمر يعرض صاحبه الى القتل . فحكم المرتد هو الاستتابة أولاً فان لم يتب يقام عليه الحد ويقتل على الفور كما هو معروف فى الفقه الاسلامى .

وطبيعى أن رسول ملك تامسنا كان يعلم بهذا الحكم لأن الاسلام لم يكن حديث العهد ، بل كان قد مر عليه ٣٥٢ سنة فى ذلك الحين . واذا كان تعلم هذا الرسول بهذا الأمر شيئاً مفروغاً منه فافتنا تساءل : ألم يخش هذا الرسول هو ومن صحبه فى هذه السفارة على أنفسهم من اقامة الحد عليهم اذا ما خبروا خليفة الأندلس بديانتهم وردتهم على النحو الذى أشار اليه البكرى ؟ ! ومع ذلك فافتنا لم نسمع ولم نشر المصادر الى استتابة هذا الرسول ، ولا الى اقامة الحد عليه وعلى أصحابه الذين كانوا معه . بل على العكس من ذلك تحكى المصادر عن قيام علاقات الود والصداقة بين الفريقين ، وعن قيام علاقات تجارية وطيدة بينهما استمرت طوال عهد حكم بنى صالح فى تامسنا .

ويفصل الادريسي أمر هذه العلاقات التجارية فيشير الى كثرة الزروع والمحاصيل والمواشى التى كانت تفيض عن حاجة أهل تامسنا فيصدرون فائضها الى بلاد الأندلس (١٤٣) . كما يشير الى عدد كبير من الموانئ الساحلية التى قامت فى بلاد تامسنا وكان لها نشاط تجارى كبير مع بلاد الأندلس ، مثل ميناء سلا التى كانت تستقبل التجار القادمين من اشبيلية

وسائر المدن الساحلية الأندلسية الذين كانوا يقلعون منها محملين بسائر السلع والبضائع المختلفة ، وكان أهل أشبيلية يقصدونها محملين بالزيت الكثير الذى كانوا ينتجونه فى بلادهم ويعودون منها بالطعام الى سائر بلاد الأندلس الساحلية (١٤٤) .

ويشير الادريسي أيضا الى ميناء فضالة الذى يقع فى بلاد تامسنا الى الجنوب من ميناء سلا وعلى بعد اثنى عشر ميلا منه فيقول ان السفن الأندلسية كانت ترد الى هذه المدينة « فتحمل منها أوساقها طعاما حنطة وشعيرا وفولا وحمصا وتحمل منها الغنم أيضا والمعز والبقر » (١٤٥) . وكذلك كان الحال مع ميناء آفقا الذى كان « مرسى مقصودا تأتى اليه المراكب وتحمل منه الحنطة والشعير » (١٤٦) .

والطريف أن ميناء آسفى لم يحمل هذا الاسم الا بسبب نشاط الأندلسيين البحرى الذى وصل الى هذه المنطقة من بلاد تامسنا . فيذكر الادريسي أن جماعة من مدينة لشبونة التى تقع فى غربى الأندلس أبحرت فى بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) لاستكشافه ووصلوا الى جزيرة فيه تسمى جزيرة الغنم لم يلبث ملكها أن قبض عليهم وأرسل بهم مخمضى العيون فى سفينة ألقت بهم على بر يسكنه البربر ، فقال لهم أحد هؤلاء البربر : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقال البحارة المغررون : لا ، فقال لهم البربر : إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين ، فقال رئيس البحارة : وآسفى ، فسمى المكان الذى كانوا به آسفى ، وهو المرسى الذى يحمل هذا الاسم الى اليوم (١٤٧) .

وعلى ذلك فالعلاقات الدبلوماسية والعلاقات التجارية كانت قائمة على قدم وساق بين بلاد تامسنا فى عهد بنى صالح وبين بلاد

(١٤٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٩

(١٤٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠

(١٤٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٠

(١٤٧) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٤٨ - ٥٤٩

الأندلس ، مما ينفي أمر هذه الردة التي كانت لا بد وأن تنتج عن هذه الديانة التي أشار إليها ابن حوقل والبكري . وحتى على فرض أنهم ارتدوا ، فهل يمكن أن يستمر هذا الوضع طوال قرون من الزمان ؟ ، ذلك أننا عرفنا أن دولتهم قامت في بلاد تامسنا في عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، واستمرت أكثر من ثلاثة قرون ، فهل من الطبيعي ومن المنطقي أن تعيش دولة كافرة ومرتدة كل هذه الفترة الطويلة بين دول وأراضى وقبائل إسلامية تحيط بها من جميع الجهات ؟ وهل من المعقول أن تنطلق دعوة الإسلام من المغرب الأقصى إلى حوض نهرى السنغال والنيجر وتسرّب إلى هذه البلاد منذ القرن الثالث الهجرى على الأقل وتترك خلفها في تامسنا دولة مرتدة وكافرة ؟ ألم يكن من الأولى أن يكرس الدعاة جهودهم لنشر الإسلام في تامسنا ويعيدوا أهلها إلى الإسلام قبل أن ينشروه بين بربر الصحراء وسودان السنغال والنيجر ؟

رابعاً — أما قصة التنبؤ وادعاء النبوة الذى نسب إلى بنى صالح والذى أشار إليه ابن حوقل والبكري فهو أمر يمكن تفسيره والرد عليه بأن بنى صالح اشتغلوا بالكهانة والسحر ودرسوا علم النجوم والكلام والجدل ونبغوا فى ذلك ، مما حمل البكري نفسه لأن يقول إن « برغواطة صارت أعلم الناس بالنجوم وأحذقهم بالقضاء بها » (١٤٨) ، وكانوا يخبرون البربر بأشياء قبل أن تحدث مما تدل عليه النجوم عندهم (١٤٩) ، فاعتقد هؤلاء البربر الذين كانوا على شيء كثير من الجهل والسذاجة بأنهم مثل الأنبياء يخبرون ببعض الأشياء قبل أن تقع وتحدث ، واستغل أعداء بنى صالح هذه الفرصة ودمغوه بهذه التهمة وأشاعوا عنهم هذا القول ، خاصة وأنهم كانوا مخالفين لهم فى المذهب ، فابن حوقل معروف عنه أنه شيعى الهوى ،

(١٤٨) المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، ص ١٤٠

(١٤٩) المصدر السابق ، ص ١٣٧ — ١٣٨

والبكرى كان سنيا مالكي المذهب ، بينما كان بنو صالح وقومهم من
برغواطة ليسوا على مذهب الشيعة وليسوا على المذهب المالكي ،
وانما كان لهم مذهب آخر سوف نتحدث عنه .

وأمر الطعن في الأنساب والمذاهب والشخصيات العامة التي أسست
دولا أمر معروف في التاريخ الاسلامي . والمثال على ذلك ما قيل عن
الحسن بن جنود الأصغر ، وهو علوي حسني من ولد ادريس بن
عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ،
فقد ذكر ابن حزم أنه ادعى النبوة باحدى كور المغرب الأقصى ، وهي
كورة تيدلا التي تعرف في عهده بكورة تادلا (١٥٠) . فهل يمكن أن
نصدق أن أحد أفراد البيت العلوي الهاشمي الذين قضوا حياتهم في
المطالبة بحقهم في الخلافة من الأمويين ثم من العباسيين ينحدر الى
هذا المستوى ويعلن عن نبوته ويسم نفسه وأهل بيته بهذه السمة
التي تسقط حقهم وتصرف الناس عنهم وتدنهم بالكفر والالحاد .

وإذا كان قد قيل هذا القول عن أحد أفراد البيت العلوي
الهاشمي فليس من المستغرب أن نجد نفس القول أو نفس الدعوى
تنسب الى بعض أفراد البيت المالكي من بنى صالح حكام تامسنا
وزعماء برغواطة . وليس من المستغرب أيضا أنه نرى أحد المؤرخين
يشكل في أصلهم ونسبهم فيقول عنهم أنهم من أصل يهودي (١٥١) ، وقد
سبق تفنيده هذا القول (١٥٢) ، ومع ذلك فالتشكيك في الأنساب أيضا
أمر معروف ، وأشهر مثال على ذلك هو ما قيل عن نسب الفاطميين حتى
سماهم البعض بالعبيديين نسبة الى عبيد الله أول خلفائهم (١٥٣) ولم
يسمهم بالفاطميين نسبة الى فاطمة الزهراء رضى الله عنها .

(١٥٠) ابن حزم : نفس المصدر ، ٤٩

(١٥١) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥

(١٥٢) انظر : ص ٣٢ - ٣٤

(١٥٣) القلقشندي : نفس المصدر ، ص ١٦٤

والحقيقة أن الطعن الذي تعرض له بنو صالح حتى وصفوهم بادعاء النبوة وأخرجوهم من ربة الاسلام وجعلوهم مرتدين كفرية ليس الا نتيجة لشيئين : أولا هما هو اعتناق القوم لمذهب مخالف ومعارض للمذهب أو المذاهب المنتشرة والمسيطرة على عقول الناس وتفكيرهم في بلاد المغرب . وثانيهما هو حب القوم في تلمسنا للحرية والاستقلال عن أى سلطة تحاول فرض نفوذها على بلادهم .

أما المذهب المخالف الذى اعتنقه بنو صالح فهو المذهب الخارجى الصفرى الذى كان يبيح لأصحابه قتال مخالفيهم وسبى ذراريهم ونسائهم واستحلال أموالهم ، ولذلك وصمه أصحاب المذاهب الأخرى بالكفر (١٥٤) ، وهو أمر معروف فى تاريخ المذاهب الاسلامية .

فالقوم اذن كانوا من الخوارج الصفرية . وقد انتشر هذا المذهب انتشار النار فى الهشيم منذ بداية القرن الثانى للهجرة فى بلاد المغرب وخاصة المغرب الأقصى نظرا لتطرفها وبعدها عن مركز الخلافة سواء فى دمشق أم فى بغداد ، ونظرا للطبيعة الجغرافية التى تتمتع بها هذه البلاد والتى توفر الملاذ والملجأ الآمن لثوار الصفرية اذا ما داهمتهم قوات الخلافة ، ولذلك تركز الصفرية فى بلاد المغرب الأقصى بصفة خاصة واستطاعوا أن يقوموا منها بشوراتهم التى اشتعل أوارها منذ عام ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م وتمكنوا من هزيمة جيش الخلافة الأموية فى مواقع مشهورة أشار إليها ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين وسبقت الإشارة إليها (١٥٥) .

كما سبقت الإشارة أيضا الى أن رأس بنى صالح وزعيمهم ومؤسس

(١٥٤) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢١٩ — ٢٢٣ ،
ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، الرقيق
القيروانى : نفس المصدر ، ص ١٢٢ .

وعن مذهب الخوارج الصفرية ، انظر : ابن حزم : الفصل فى الملل
والأهواء والنحل ، ج ٥ ص ٥٣ ، ٥٤ ، عبد القاهر البغدادى : الفرق
بين الفرق ص ٧٠ — ٧٢ ، محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية
فى الدولة العربية الاسلامية ، ص ١٣١ .
(١٥٥) انظر : ص ٤٤ .

دولتهم وهو طريف بن مالك كان أحد زعماء الصفرية ، وكان من كبار أصحاب ميسرة المطعري الذي أشعل نار الثورة ضد بني أمية في طنجة وبلاد الريف في عام ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م وحارب طريف الى جانب ميسرة أثناء هذه الثورة التي امتد نفوذها حتى القيروان . ولما هزم الصفرية وانحسر نفوذهم عن افريقية والمغرب الأوسط انسحب طريف الى بلاد تامسنا وأقام فيها دولة لقومه من البربر الذين التف حولهم عدد من القبائل الأخرى وذلك في عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، كما انسحب صفرية آخرون الى سجلماسة وأقاموا فيها دولتهم منذ عام ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م . والدلائل الأخرى على أن بني صالح وقومهم من برغواطة وغيرهم من القبائل الأخرى التي دافت لهم بالطاعة كانوا صفرية ، ذلك الشعر الذي أورده البكري^(١٥٦) ورواه عنه ابن عذاري^(١٥٧) ، وابن خلدون^(١٥٨) على لسان فضل بن مفضل نقلا عن شاعر من المصامدة الذين تنسب اليهم برغواطة وبنو صالح . اذ قال ذلك الشاعر وهو سعيد بن هشام المصمودي ينعي على بني صالح ما فعلوه في موقعة بهت التي راح ضحيتها آلاف الضحايا :

ألم تسمع ولم ترو يوم بهت على آثار خيلهم ريننا
رفين الباكيات فبين ثكلى^(١٥٩) وعأوية ومسقطه جيننا
سيعلم قوم تامسنى^(١٦٠) اذا ما أتوا يوم النشور مهيميننا
هنالك يونس وبنو بنيه يقودون البرابر مهطعينا^(١٦١)

-
- (١٥٦) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٢٨
(١٥٧) البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٢٦
(١٥٨) تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٨
(١٥٩) بهم ثكلى ، عند ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٢٦
(١٦٠) تامسنا عند ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٨ ، كما جاء عنده
أيضا يوم القيامة مهطعينا ، وقد سقط هذا البيت عند ابن عذاري .
(١٦١) ورد هذا البيت عند ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٢٦ ، على
هذا النحو :
هنالك يونس وبنو بنيه بهم يوالوا البرابر معظميننا
وورد عند ابن خلدون (ج ٦ ص ٢٠٨) على هذا النحو :
هنالك يونس وبنو بنيه يقودون البرابر حائرنا

إذا ورى يا وري زمت عليه جهنم قايد المستكبرينا (١٦٣)
فليس اليوم ردقكم ولكن ليالى كنتم متميسرينا (١٦٣)

وقد علق البكرى على البيت الأخير بقوله إن « هذا البيت يصدق قول زامور البرغواطى ، وهو الرسول الذى كان أبو منصور عيسى ملك تامسنا قد أرسله الى الحكم المستنصر الأموى بالأندلس فى عام ٣٥٢ هـ أن طريقها كان من أصحاب ميسرة ويشهد له » (١٦٤) ، كما فسر ابن عذارى بأن قوله « مستيسرين » يعنى بأنهم كانوا من المياسرة ، أى أصحاب ميسرة المطبرى (١٦٥) زعيم الصفرية الذى سبقت الإشارة إليه .

فالشعر والتعليق عليه الذى ورد من البكرى نفسه يدلان بشكل قاطع على أن بنى صالح كانوا من الخوارج الصفرية . وقد قيل هذا الشعر اما فى عصر أبى غنير (٢٧١ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٤ - ٩١٢ م) الذى حدث فى عهده موقعة بهت التى أشار اليها الشاعر ، أو فى عصر حفيده أبى منصور عيسى (٣٤١ - ٣٦٨ هـ / ٩٥٢ - ٩٧٨ م) الذى أرسل رسوله الى الحكم المستنصر فى عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م . ذلك الرسول الذى أسند اليه ابن حوقل والبكرى ما ذكره عن بنى صالح وبرغواطة وعن مذهبهم وعقيدتهم ، مما يدل دلالة واضحة

(١٦٢) سقط هذا البيت عند ابن عذارى ، وورد عند ابن خلدون (ج ٦ ص ٢٠٨) على هذا النحو :

إذا زر ياور طافت عليهم جبهتهم بايندى المنكرينا

(١٦٣) وردت كلمة مستيسرينا عند ابن عذارى (ج ١ ص ٢٢٦) ،

وورد عند ابن خلدون (ج ٦ ص ٢٠٨) على هذا النحو :

فليس اليوم يومكم ولكن ليالى كنتم متميسرين

(١٦٤) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٢٨

(١٦٥) البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٢٦

على أن القوم منذ أن قامت دولتهم على عهد جدهم الأكبر طريف بن مالك
في عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م حتى عصر هؤلاء الملوك كانوا على مذهب
الصفيرية .

ومما يدل على ذلك أيضا ، هذا التشدد الصارم المأثور عن
الخوارج والذي نراه عندهم في مسائل الأخلاق وكذلك في
العبادات . فابن حوقل نفسه يشير إلى تقشفهم الشديد وزهدهم
في الدنيا فيقول إن أحد ملوكهم وهو أبو عفير « دعاهم إلى النسك
وترك الدنيا والاقبال على التقلل والزهد ، وتناهى هو وخاصته في
ذلك إلى أن حفظ عليه صبره عن الغذاء خمسا (بضم الخاء) من
الدهر وسبعا وتسعا » (١٦٦) . كما يشير ابن حوقل أيضا إلى
اتصاف برغواطة بالأمانة والكرم وبعدها عن الرذائل فيقول : « في
برغواطة أمانة وبذل للطعام وتجنب للكبائر من الحرام والمحظورات
من الآثام » (١٦٧) .

ويؤكد البكري هذه الصفات فيقول عن أحد ملوكهم وهو الياس
ابن صالح بن طريف أنه كان « طاهرا غفيرا لم يلتبس بشيء من الدنيا
إلى أن هلك بعد أن ملك خمسين سنة » (١٦٨) ، وأخرى بمن تكون هذه
صفاته أن يملك هذا العدد الكبير من السنين . ولم يكن الياس
وحده هو الذي ملك عددا كبيرا من السنين ، وإنما معظم أفراد
أسرته حكموا مددا كبيرة .

فوالده صالح بن طريف حكم أربعين عاما ، وابنه يونس ابن الياس
حكم أربعة وأربعين عاما (١٦٩) ، وحكم أبو عفير محمد بن معاذ بن اليسع

(١٦٦) صورة الأرض ، ص ٨٣

(١٦٧) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٦٨) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١٣٦

(١٦٩) المصدر السابق ونفس الصفحة .

ابن صالح بن طريف تسعا وعشرين سنة (١٧٠) ، وحكم ابنه عبد الله أبو الأنصار بن أبي عفير اثنين وأربعين سنة (١٧١) ، وحكم ابنه أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار ثمانية وعشرين عاما (١٧٢) وكان معاصرا لابن حوقل ومات في عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م (١٧٣) بعد موت ابن حوقل بعام واحد ولذلك لم يشر هذا الجغرافي الى موته .

وكما اتبع بنو صالح أسلوب الخوارج في التقشف والزهد في الدنيا ، فاتهم أيضا اتباعوا أسلوبهم في التشدد في فرائض الوضوء ، فهم يرون في الوضوء غسل الصرة والخاصرتين ثم الاستنجاء ثم المضمضة وغسل الوجه ومسح العنق والقفاء وغسل الذراعين من المنكبين ومسح الرأس ثلاث مرات ومسح الأذنين كذلك ثم غسل الرجلين من الركبتين (١٧٤) . وهي نفس الأمور التي يتم بها الوضوء تقريبا عند أصحاب المذاهب الأخرى عدا هذا التشدد الظاهر في غسل الصرة والخاصرتين وغسل الذراعين من المنكبين وغسل الرجلين من الركبتين .

كما أنهم غالوا كثيرا في أداء عدد كبير من الركعات . فقد كانوا يصلون خمس صلوات أثناء النهار ومثلها بالليل (١٧٥) . ويسدو أن صلوات الليل كانت تعويضا أو قضاء عما فات المرء منهم من صلوات كان قد فرط فيها أو لهي عنها كما فعل المرابطون بعد ذلك ، اذا كانوا يأخذون الناس بمضاعفة صلواتهم فيصلون أربع ركعات قبل صلاة الظهر وهكذا في باقي الصلوات للسبب الذي أشرنا اليه وأشار اليه البكري نفسه (١٧٦) .

(١٧٠) المصدر السابق ، ص ١٣٦ - ١٣٧

(١٧١) المصدر السابق ، ص ١٣٧

(١٧٢) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٩

(١٧٣) المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة .

(١٧٤) البكري : نفس المصدر ، ص ١٣٩

(١٧٥) المصدر السابق ، ص ١٦٨

(١٧٦) المصدر السابق ، ص ١٣٩

كما أن بنى صالح وقومهم من برغواطة غالوا أيضا فى الصيام ، فكافوا يصومون يوما من كل أسبوع ويصومون « الجمعة الأخرى التى تليه أبدا » (١٧٧) ، كما صاموا شهر رجب (١٧٨) ، وليس من المعقول أنهم صاموه بدلا من شهر رمضان كما أشار البكرى (١٧٩) ، لأن القوم كانوا مسلمين على مذهب الصفرية ، ومذاهب الخوارج كلها حتى أعنفها وأكثرها تطرفا وتشددا لم تفعل ذلك ، والراجح أن سمة التشدد فى العبادة والاستغراق فيها جعلتهم يصومون شهر رجب بجانب شهر رمضان .

ونفس التشدد والغلو تلاحظه عندهم أيضا فى العقوبات . فنرى القسوة واضحة فى معاقبة المذنبين والجناة . فالسارق لا تقطع يده كما يأمر الشرع ، بل كان يعاقب بالقتل اذا ما اعترف بالسرقة أو اذا كانت هناك بينة واضحة مؤكدة على قيامه بالسرقة (١٨٠) . والكاذب ينفى ويسمونه المغير (١٨١) ، وهو تشدد وغلو واضح فى هذه الناحية وفى غيرها من نواح تتصل بسلوكياتهم فى الطعام . اذ أن « رأس كل حيوان عليهم حرام ، والحوث لا يؤكل الا أن يذكى (أى يذبح) والبيض عندهم حرام والدجاج مكروهة الا أن يضطر اليها » (١٨٢) والديوك حرموا ذبحها لأنها تساعدهم فى معرفة الأوقات (١٨٣) . ويظهر أن ذلك

(١٧٧) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٧٨) المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

(١٧٩) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٨٠) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

(١٨١) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٨٢) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٨٣) المصدر السابق ونفس الصفحة .

كان أثرا من آثار عاداتهم القديمة ، ولا زالت هذه العادات باقية عند بعض القبائل في الجزائر وفي الصحراء (١٨٤) .

أما في غير ذلك من الأمور فهم يسيرون فيها كما يسيرون المسلمون

(١٨٤) دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٧ ص ٦٩

يبدو أن التشدد والفلو الذي اتصف به بنو صالح من الصفرية لم يكن قاصرا عليهم وحدهم ، بل اتصف به غيرهم من البربر الذين أقاموا دولة المرابطين التي قضت عليهم . فالبكرى ينتقد المرابطين وزعيمهم الدينى عبد الله بن ياسين حين غزوه لمدينة أودغست الإسلامية فيقول انهم « استباحوا حريمها وجعلوا جميع ما اصابوا فيها فينا » ، وكانهم كفره رغم كونهم مسلمين . كما اشار الى ما شذ فيه عبد الله ابن ياسين من الاحكام . من ذلك اخذه الثلث من الاموال المختلطة زائعا أن ذلك يطيب باقيها ويجعله حلالا ، واقامة الحدود بكافة أنواعها على من دخل فى دعوتهم وتاب عن سالف ذنوبه ، فكانوا يقولون له : « قد اذنبت ذنوبا كثيرة فى شبابك فيجب عليك حدودها وتطهر من امها » فكانوا يضربون الزانى مائة سوط والمفتري ثمانين سوطا ، وشارب الخمر مثلها وربما زادوا على ذلك ، وكذلك كانوا يفعلون بمن تغلبوا عليه وادخلوه فى رباطهم ولو علموا انه قتل قاموا بقتله سواء اتاهم تائبا طائعا او غلبوا عليه مجاهرا غاصيا ، فلا تنفعه توبته ولا تفنى عنه رجعتة ، وكانوا يعاقبون من تخلف عن صلاة الجماعة بضربه عشرين سوطا ، ومن فاتته ركعة ضربه خمسة أسواط ، كما كانوا يأخذون الناس بصلاة ظهر أربع ركعات قبل صلاة الظهر فى الجماعة وكذلك فى سائر الصلوات عوضا عما فرط فيه من صلوات فى سالف أيامه . ولذلك كان أكثر عوامهم يصلون بغير وضوء اذا أعجلهم الأمر خوفا من الضرب والاهانة ، وكذلك كان يعاقب من رفع صوته فى المسجد بالضرب بقدر ما يراه الضارب له ، ويشير البكرى الى أنهم كانوا يأخذون زكاة الفطر وينفقونها على أنفسهم ، بهذه الأشياء الى جهل فقيهم الكبير عبد الله بن ياسين الذى أمرهم بهذه الأشياء فقال انه لم يستطع معرفة معنى « حاش لله » وضرب من قالها فى مجلسه .

انظر : البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٦٨ - ١٧٠ .
ولذلك وصفهم المهدي محمد بن تومرت الزعيم الدينى لدولة

الآخرون ، فالزاني عقوبته الرجم^(١٨٥) ، والزكاة يأخذونها حسب الأنصبة الشرعية المعروفة ، فهم يأخذون العشر من جميع الجبوب زكاة^(١٨٦) ،

الموحدون التي خلفت دولة المرابطين بقوله انهم « المارقون المبدلون الذين تسموا بالمرابطين » .

انظر : المراكشي : تاريخ الاندلس المسمى بالمعجب في تلخيص اخبار المغرب ، ص ١٠٦

واذا كان البكري المعاصر للمرابطين قد انتقدهم وانتقد زعيمهم الديني ابن ياسين على النحو الذي رأيناه ، فقد قام المراكشي بثقفس المهمة بالنسبة للموحدون الذين كان معاصرا لهم ، فجاء بأخبار عن زعيمهم الديني ابن تومرت تشبيه في بعض النواحي ما جاء به البكري من صالح بن طريف وعن حفيده يونس ، فقال عنه انه رحل الى المشرق عام ٥٠١ هـ ودرس الفقه وأصول الدين والحديث ، كما درس علم الرمل والنجوم الذي كان « أوحده أهل عصره فيه » . لانه « وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجفور من بعض خزائن خلفاء بني العباس » ، وأوصله الى ذلك كله فرط اعتناؤه بهذا الشأن .

ولما عاد بن تومرت الى بلاد المغرب الأقصى ووصل الى السوس اجتمع اليه وجوه المصامدة « فالف لهم عقيدة بلسانهم ، ودعاهم الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » ، ثم انتسب الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وصرح بدعوى العصمة لنفسه ، وانه المهدي المعصوم ، وروى في ذلك احاديث كثيرة حتى استقر عندهم انه المهدي فبايعوه على ذلك ، وقال لأصحابه : منكم الأمير الذي يصلي بعيسى بن مريم ولا يزال الامر فيكم الى قيام الساعة ، هذا مع جزئيات كان يخبرهم بها وقع اكثرها وكان يقول او شئت ان أهد خلفاءكم خليفة خليفة . فزادت فتنة القوم به وظهروا له شدة الطاعة .

انظر : المراكشي : تاريخ الاندلس المسمى بالمعجب في تلخيص اخبار المغرب ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤

ولكن المراكشي لم يرم المهدي ابن تومرت بالردة او الكفر لانه ادعى العصمة وادعى علم الغيب ، ولم يرمه بصفات أخرى تخرجه عن الاسلام كما فعل البكري مع بني صالح البرغواطيين ، لان ابن تومرت كان يدين بالمذهب الشائع الغالب في تلك البلاد وهو المذهب المالكي السني ، اما بنو صالح فكانوا مع قومهم من برغواطة من الخوارج الصفرية الذين كانوا كفارا في نظر أهل السنة في ذلك الحين .

(١٨٥) البكري : نفس المصدر ، ص ١٣٩

(١٨٦) المصدر السابق ونفس الصفحة .

ويطلقون النساء ويراجعونه^(١٨٧) كما هو مألوف عند سائر أصحاب المذاهب الإسلامية الأخرى .

والصفات الإسلامية التي تؤكد اسلام بنى صالح وقومهم من برغواطة عديدة وكثيرة ، منها أنهم لم ينكروا نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا انه « صادق فيما أتى به من القرآن والأحكام »^(١٨٨) ويقول ابن حوقل المعاصر لهم ان « فيهم الآن من يقرأ القرآن بغاية الاحترام ويحفظ منه السور »^(١٨٩) . كما أنهم كانوا يتجنبون « الكبائر من الحرام والمحظورات من الآثام » ، ويقبلون على « التمسك والزهد في الدنيا » كما قال ابن حوقل^(١٩٠) .

ويكفي في ذلك ما قاله البكري عن أول ملوكهم طريف بن مالك من أنه كان على ديانة الاسلام^(١٩١) ، وما قاله أيضا عن ثاني ملوكهم صالح بن طريف من أنه « كان من أهل العلم والخير »^(١٩٢) ، وما قاله عن ثالث ملوكهم الياس بن صالح من أنه كان « طاهرا عفيفا لم يلتبس بشيء من الدنيا »^(١٩٣) ، وعن رابع ملوكهم يونس بن الياس من أنه رحل الى المشرق وحج^(١٩٤) دون أن يخشى عقوبة المرتد فيما لو كان كذلك كما أن المرتد لا يحج ، وما قاله ابن حوقل عن خامس ملوكهم أبي عفير بن محمد بن معاذ بن اليسع من أنه كان متسككا زاهدا تاركا للدنيا مقبلا على الآخرة متشددا

(١٨٧) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٨٨) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٨٢

(١٨٩) المصدر السابق ، ص ٨٣

(١٩٠) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٩١) البكري : نفس المصدر ، ص ١٣٥

(١٩٢) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٩٣) المصدر السابق ، ص ١٣٦

(١٩٤) المصدر السابق ونفس الصفحة .

على نفسه في الطعام والشراب^(١٩٥) ، وما قاله البكري عن سادس ملوكهم عبد الله أبي الأنصار بن أبي خنير من أنه كان « سخيا طريفا يفي بالعهد ويحفظ الجار ، ويكافئ على الهدية بأضعافها »^(١٩٦) ، وعن سابغ ملوكهم أبي منصور عيسى بن عبد الله أبي الأنصار من أنه سار بسيرة أبيه^(١٩٧) .

وعلى ذلك فإن القوم كانوا مسلمين على مذهب الصفرية من الخوارج . ومعروف أن أصحاب هذا المذهب وغيره من مذاهب الخوارج الأخرى يرون أن الإمامة أو الخلافة أو حكم المسلمين ليس قاصرا على قریش وحدها أو على العرب وحدهم ، وإنما هو حق مباح لسائر المسلمين إذا ما توافرت فيهم الصلاحية لتتولى هذا المنصب الخطير ، ولما قاومهم بنو أمية وبنو العباس لهذا السبب بالذات توالى ثوراتهم وانسحب كثير منهم بعد هزيمتهم وعلى رأسهم طريف بن مالك إلى بلاد تامسنا حيث أقاموا دولة لهم هناك تمتعت بالاستقلال طوال حكم الأدارسة (١٧٢ - ٣٧٣ هـ / ٧٨٤ - ٩٨٣ م) وحكم من أتى قبلهم أو بعدهم من حكام في بلاد المغرب الأقصى .

ولم تكن تامسنا هي الوحيدة التي اتبعت المذهب الصفرى في هذه البلاد ، إذ نرى ابن خرداذبة يقول إن درعة مدينة كبيرة كثيرة الأهل وأنها تحت سيطرة الخوارج الصفرية^(١٩٨) . ويقول المسعودى أنه في « هذا الصقع من بلاد المغرب - يقصد بلاد المغرب الأقصى - خلق من الصفرية الخوارج لهم مدن ممدودة مثل مدينة ثرغية »^(١٩٩) . ويشير ابن عذارى إلى ثورة عبد الرازق

(١٩٥) صورة الأرض ، ص ٨٢ ، ٨٣

(١٩٦) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١٣٧

(١٩٧) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٩٨) المسالك والممالك ، ص ٨٨

(١٩٩) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الكتاب اللبناني ،

بيروت ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢ ، ج ١ ص ١٤٢

الصفري في القرن الثالث للهجرة على الأمير الادريسي على
ابن عمر بن ادريس الثاني ، والى نجاحه في ثورته حتى استولى على
فاس (٣٠٠) .

وهكذا استقرت الأمور للصفرية في كثير من أنحاء المغرب الأقصى
وخاصة في بلاد تامسنا وسجلماسه (٢٠١) ودرن ، وقنع الأدارسة بحكم
فاس وما يحيط بها من مدن ونواح قريبة ، خاصة بعد أن ضعف
نفوذهم وتسلبت عليهم الفاطميون من الشرق والأمويون من الشمال ،
حتى اضطروا أخيرا إلى الجلاء عن فاس والنزوح إلى بلاد الريف في
أقصى شمال المغرب الأقصى واستقروا في قلعة تعرف بقلعة حجر النسر
حتى أخرجوا منها وقضى عليهم نهائيا في عام ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م (٢٠٢) .

كما قام صفرية المغرب الأوسط أيضا بمواصلة النضال والثورة
ضد ولاية الخلافة في افريقية والمغرب الأوسط للدرجة أنهم تمكنوا
من التغلب على والى افريقية واقتحام القيروان عام ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م
واحتلالها قرابة عامين (٢٠٣) ، كما تمكنوا بمساندة الأباضية من قتل
والى افريقية والمغرب عمرو بن حفص بن قبيصة المهلبى في عام
١٥٣ هـ / ٧٧٠ م (٢٠٤) ، مما دفع حكام افريقية لقتالهم والتصدي لهم
بعنف وشراسة ، واستمر قتال هؤلاء الحكام لهم في عهد داود بن يزيد

(٢٠٠) البيان المغرب ، ج ١ ص ٢١٢ -

(٢٠١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٧١

(٢٠٢) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٧ ، ج ٦
ص ٢١٧ ، ٢١٨

(٢٠٣) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٧٠ - ٧٢

(٢٠٤) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٣٠ ، ابن عذارى : نفس

المصدر ، ج ١ ص ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨

ابن حاتم^(٢٠٥) ثم فى عهد الأغالبة الذين تولوا حكم افريقية منذ عام ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م .

هذا فى الوقت الذى لم يد فيه بنو صالح ومن معهم من الصفرية أى فشاط ثورى « اذ فضاوا التمتع باستقلالهم فى بلادهم النائية ، وذلك لم فصل اليهم يد الخلافة . ولما تولى الأدارسة حكم بلاد المغرب الأقصى فى عام ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م قنعوا منهم بالولاء الشكلى الذى أشرنا اليه وتركوهم يحكمون بلادهم مستقلين ، مع الحفاظ على حسن الجوار وتبادل العلاقات والمنافع التجارية كما سبق القول .

ومعروف أن الخوارج فى بلاد المغرب كانوا وسيلة من وسائل نشر الاسلام^(٢٠٦) ، سواء بين البربر الذين كانوا على غير دين الاسلام ، أم بين غيرهم من السودان والزوج الذين يسكنون البلاد التى تقع وراء الصحراء الكبرى فى بلاد النيجر والسنگال ، مما يدل على أن عقيدة القوم لم تكن بالصفة التى وصفهم بها ابن حوقل أو البكرى . فليس من المعقول أن من ينشر الاسلام يكون خارجا عليه أو من تدا عنه وكافرا به .»

ولكن اعتناق بنى صالح وقومهم من برغواطة لأحد مذاهب الخوارج جعلهم فى مهب التشكيك والظعن ، سواء فى أسابهم أم فى عقيدتهم ، كما جعلهم مكروهين وسط المحيط السننى الكبير الذى أحاط بهم حيث كانوا يستحلون سبى الذرارى والنساء وأخذ الأموال^(٢٠٧) . وقد بلغت هذه الكراهية حدا جعل الليث بن سعد فى مصر يقول « ما من غزوة كنت أحب أن أشهد بها بعد غزوة بدر أحب الى من غزوة

(٢٠٥) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٣٠ ، ابن عذارى : نفس

المصدر ، ج ١ ص ٨٢

(٢٠٦) حسن محمود : نفس المرجع ، ص ١٤٧

(٢٠٧) ابن عبد الحكيم : نفس المصدر ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣

القرن والإصنام» (٢٠٨) ، وهما الغزواتان اللتان اقلح فيهما صفرية بلاد المغرب اندحارا شديدا (٢٠٩) انسحب بعضهم اثره كما قلنا الى بلاد تامسنا حيث قام حكم بنى صالح ، وبعضهم الآخر الى سجلماسة في أقصى الجنوب حيث قام حكم بنى مدرار .

وقد اشتدت كراهية الناس لهم بعد أن طعموا مذهبهم ببعض العقائد المستمدة من مذاهب اسلامية أخرى كالشيعة التي أخذوا منها قولهم بالرجعة ، وبالمهدي المنتظر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال ويملا الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا (٢١٠) ، مما جعل ابن حوقل الشيعي الهوى والبكرى المالكى السنى المذهب يشتدان في نقدهم والطعن في مذهبهم وفي أحوالهم .

ويبدو أن بنى صالح قد اضطروا لخلط مذهبهم بهذه العقائد استدراجا لعطف الفاطميين وابعادهم عنهم وعن بلادهم في نفس الوقت ، خاصة بعد أن كان نجم الفاطميين قد علا في بلاد المغرب منذ أن قامت دولتهم فيه عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م واستطاعوا السيطرة في أحيان كثيرة على بلاد المغرب الأقصى وغزوه عدة مرات لمنع سيطرة الأمويين عليه . وقد سقط أحد ملوك بنى صالح في عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م قتيلا في إحدى هذه الغزوات بعد أن قاوم التدخل الفاطمي في بلاده على يد الزيريين الصنهاجيين الذين كانوا دعاة الفاطميين ويدهم التي يبطشون بها في هذه البلاد ، ولم ينفع بنو صالح ولم يشفع لهم ما كانوا قد أدخلوه من عقائد شيعية على مذهبهم الصفرى الذى اعتنقوه .

كان بنو صالح مصممين على حكم بلاد تامسنا حكما مستقلا عن أى قوة أخرى قريبة أو بعيدة ، وتصدوا في سبيل ذلك للمغيرين على

(٢٠٨) الرقيق القيروانى : نفس المصدر ، ص ١٢٢ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٩

(٢٠٩) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٨ - ٥٩

(٢١٠) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥

بلادهم بكل قوة وحزم وعزم . وقد أشارت كتب التاريخ الى
مقاومتهم واستبسالهم والى قوتهم وغنهم فوصفوههم بأنهم كانوا
« أحرار ذوى شوكة » (٢١١) .

ومن الواضح أن حبهم للحرية والاستقلال جعلهم يحرصون
على تأكيد سيطرتهم على بلادهم والبعد بها عن كل نفوذ خارجي ،
والاستعانة بالأمويين فى سبيل الحفاظ على استقلالهم بعيدا عن نفوذ
الدارسة والفاطميين ، وهما القوتان اللتان كان فى مكنتهما التدخل
فى بلادهم .

كذلك فقد دفعهم حب الحرية والاستقلالية الى استعمال لغتهم
الخاصة بهم وهى اللغة البربرية حتى فى أداء الشعائر الدينية كما أشار
الى ذلك ابن حوقل (٢١٢) والبكري (٢١٣) .

ويبدو أن ترجمة الشعائر الدينية وترجمة بعض السور وآيات
القرآن الكريم الى لغتهم قد دخله شطط أو خطأ ، فظن البعض أن
صالح بن طريف ألف قرآنا خاصا به باللغة البربرية يتمثل فى ثمانين
سورة أسماء معظمها تقع على أسماء النبيين من لدن آدم ، أولها سورة
أيوب وآخرها سورة يونس (٢١٤) . ومعروف أن القرآن الكريم ذاته
يشتمل على عدد كبير من السور تتحدث عن الأنبياء وتحمل بعضها
أسماء بعض الأنبياء ، مما أدى الى الخلط والتشكيك فى عقيدة القوم
أو مذهبهم .

فألراجع أن هذه السور المترجمة الى البربرية وتحمل أسماء

(٢١١) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ٦٦

(٢١٢) صورة الأرض ، ص ٨٢

(٢١٣) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٩ - ١٤٠

(٢١٤) المصدر السابق ، ص ١٤٠

الأنبياء هي نفسها سور من القرآن الكريم ، خاصة وأنه لا يوجد أحد من المؤرخين قد تحدث في ايجاز أو تفصيل عن هذه السور الا البكرى الذى أشار الى كلمات مترجمة من أول سورة واحدة منها^(٢١٥) دون أن يشير الى المصدر أو المترجم الذى أخذ عنه هذه الكلمات ، ولم نعرف بعد أن البكرى كان يحسن الترجمة من اللغات البربرية على تعددها الى اللغة العربية .

كما أنه الكلام الذى أوردته البكرى أيضا عن القرآن المنسوب الى صالح بن طريف أو الى حفيذه يونس كلام مرسل غير مستند الى راو معروف أخذ عنه البكرى هذا الكلام ، ذلك أننا نراه يذكر راويه بالنسبة للملك بنى صالح وحروبهم واتصالهم ببلاد الأندلس وعقيدتهم بصفة عامة ، وعندما يتصدى للحديث عن هذا القرآن المزعوم لا يذكر مصدره ولا من أخذ عنه ، مما يجعلنا لا قبل روايته ، ويجعل من المستحيل فى مثل هذه الظروف أن تكون فكرة دقيقة وكاملة عما نسب الى بنى صالح من عقيدة مزعومة^(٢١٦) لا يمكن أن تصد أمام هذه الدلائل العديدة التى سقناها حتى الآن .

ولذلك كله فأننا نستطيع القول فى اطمئنان بأن بنى صالح وقومهم من برغواطة كافوا مسلمين يدينون بمذهب الخوارج الصفرية ، وهو مذهب لا يمت بصلة الى المذاهب المحيطة بهم ، واتخذوا من هذا المذهب راية يلتفتون حولها حفاظا على استقلالهم ونجاة من سيطرة القوى المحيطة بهم ، إذ أنهم وكما قلنا كافوا محاطين بقوى ثلاث ، هي دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى ، والفاطميون فى افريقية والمغرب الأوسط ، والأمويون فى الأندلس .

أما الأمويون فقد صانعوهم وربطوا معهم كما رأينا أواصر الصداقة

(٢١٥) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٢١٦) دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٧ ص ٧٣

والمودة ، وأما الأدارسة السنة والفاطيون الشيعة فلم يكن هناك من سبيل لدفع خطرهم إلا التمسك بمذهب يخالف ما يعتنقه هؤلاء من مذاهب ، وفجح بنو صالح في ذلك النجاح كله ، اذ التف البربر حولهم في بلاد تامسنا وما يحيط بها من مدن ، ودانوا لهم بالطاعة الكاملة ، وبرزوا معهم لقتال من حاول النيل من بلادهم أو حاول القضاء على دولتهم ، مما أدى الى ازدهار هذه الدولة ، والى دخولها في مرحلة من مراحل القوة والاقتدار والتوسع .

ازدهار دولة بنى صالح وتوسعها

تعتبر الفترة الأولى التى امتدت من عهد طريف بن مالك (١٢٥ - ١٣١ هـ / ٧٤٣ - ٧٤٨ م) الى عام ٢٢٨ هـ ٨٤٢ م حيث بدأ حكم يونس بن الياس بن صالح بن طريف فترة نشأة وتأسيس وتمهيد ووضع للقواعد والأصول التى قامت عليها دولة بنى صالح فى بلاد تامسانا (السوس الأدنى) بالمغرب الأقصى . كما أنها كانت فترة سلام مع جيرانها من ولاية بنى العباس وأمراء الأدارسة ، خاصة وأن العباسيين فى تلك الفترة كانوا يعيشون عصرهم الذهبى ، وكان الأدارسة يعيشون فترة قوتهم وازدهارهم ، ولذلك لم نسمع عن صدام وقع بين بنى صالح وبين جيرانهم .

وفيما يبدو لم تكن قدرة بنى صالح العسكرية فى تلك الفترة بكافية لاقامة علاقات غير سلمية مع جيرانهم ، يفهم ذلك من قول صالح ابن طريف لابنه الياس حينما أراد الزواج الى المشرق ألا يظهر أمره الا اذا كان قويا وآمن على نفسه ودولته ومذهبه من هجوم القوى المحيطة به ، وعندما تتوفر له القوة والمنعة يمكنه حينئذ قتال وقتل من خالفه ، وأوصاه فى نفس الوقت بموالاة أمير الأندلس (١) حتى يكون فى جانبه اذا ما تعرض لهجوم أو عدوان من جيرانه ، مما يدل على عدم توافر القوة الكافية للتحرش بجيرانهم أو فرض مذهبهم الصفرى بالقوة على هؤلاء الجيران ، خاصة وأن الصفرية كانوا قد هزموا هزيمة ساحقة فى عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، وهى هزيمة فرقتهم بلدا وأوهنت منهم الى حد كبير ، فأخفى الصفرية من بنى صالح أمرهم واتبعوا التقية حتى يصبحوا على شئ من القوة فيظهرون مرة أخرى . ولذلك التزم الياس بنصيحة أبيه وسالم جيرانه ولم يظهر مذهب الخوارجى « خوفا

وتقية»^(٢) ، ومات دون أن يقع أى صدام بينه وبين أحد من جيرانه ، وتولى بعده ابنه يونس بن الياس (٢٢٨ - ٢٧١ هـ / ٨٤٢ - ٨٨٤ م) وتولى يونس بدأ عهد القوة والازدهار والتوسع .

والدلائل على التوسع والازدهار فى عصر يونس كثيرة . منها أنه أظهر مذهبه الذى كان يخفيه أباه خوفاً وتقية ، اذ كان بنو صالح كما قلنا يعيشون وسط بحر هائل من أهل السنة والجماعة . والدليل الثانى أنه أخذ يفرض هذا المذهب بالقوة على جيرانه الأقربين . وفى سبيل ذلك كون حلفاء كبيراً جمع عدداً من قبائل مصمودة وخاصة برغواطة التى ينتمى اليها والتى كانت قبيلة كثيرة البطون والشعوب ، وكوفت العمود الفقرى للدولة بنى صالح ، وكانت لها القوة والوجاهة . والزعاماة على جميع قبائل مصمودة فى شتى أنحاء المغرب الأقصى قبل الاسلام وفى صدره وفى قرونه الأولى^(٣) .

وبالإضافة الى برغواطة ، فقد شمل هذا الحلف عدداً كبيراً من القبائل الأخرى بعضها من زفاعة وبعضها الآخر من صنهاجة وغيرها . من القبائل . ومن أهم هذه القبائل التى انضوت تحت لوائهم واتبعتهم فى مذهبهم وكونت معهم دولتهم التى عاشت أكثر من ثلاثة قرون من الزمان ، قبائل جراوة ، وزواغة ، والبراس ، ومنجصة الزفائية ، ومطهرة ، ومطماطة ، وبنو أبى ناصر ، وبنو أبى فوح ، وبنو بورغ ، وبنو دمر ، وبنو وزكيت أو وزكسينت ، وأغمر^(٤) ، وبنو نسلت ، وبنو أو يقمران ، وزقاره^(٥) .

أما القبائل الأخرى التى انضوت تحت لوائهم ولم تتبع مذهبهم

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٦

(٣) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧

(٤) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، البكرى : نفس

المصدر ، ص ١٤٠ - ١٤١ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٨

(٥) الادريسي : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٣٦

فهي كثيرة ، منها زناة الجيل ، وبنى يفران الزناتين ، وبنى يجفش^(٦) ، وبنى يليت ، ونمالة ، وبنى واوسينت ، وبنى فاغيت ، وبنى النعمان ، وبنى أفلوسة ، وبنى كونة ، وبنى يسكر ، وأصادة ، وركافة ، وإيزمين ، ومنادة ، وماسينة ، ورساة ، وقرارة^(٧) .

وعلى ذلك فقد كان بنو صالح في عهد يونس في قوة عظيمة وعدد كبير مكنهم من تجنيد جيش قوى قادر بلغ عدد فرسانه نحو اثني عشر ألف فارس^(٨) ، استطاعوا به أن يفرضوا نفوذهم ومذهبهم على عدد كبير من القبائل والمدن والقرى ، سواء في تامسنا ذاتها أم في المدن المجاورة لهم والمحيطه بهم . يفهم ذلك من قول البكرى أن يونس قام بمحاربة من خالفه وألحق بهم الهزيمة ودمر كثيرا من مذهبهم وأحرق كثيرا من مدائن تامسنا وما والاها ، ويقال انهم دمر وأحرق ٣٨٧ مدينة واستلحم أهلها بالسيف لمخالفتهم إياه وعدم دخولهم في طاعته^(٩) ، اذ كانوا سنة وهو يدعو الى مذهب الصفرية . ونظرا لمخالفتهم إياه وعدم اتباعهم لمذهبهم فقد حاربهم وقتل منهم في موضع واحد يقال له (تاملوكاف) — وهو حجر ثابت على في وسط السوق — سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلًا ، كما قتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وغد ، والوغد عندهم هو المنفرد الوحيد الذي لا أخ له ولا ابن عم ، وذلك قليل في البربر ، وذكر البكرى أنهم « أحصوا الأقل ليستدل به على الأعظم والأكثر »^(١٠) .

(٦) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٤١ ، الإدريسي : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٣٦ — ٢٣٧

(٧) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٤١

(٨) المصدر السابق ، ص ١٤١

(٩) المصدر السابق ، ص ١٣٦ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

(١٠) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٦

وبذلك بسط يونس نفوذه على جميع بلاد تامسنا ، ويعتبر هو المؤسس الحقيقي لدولة بنى صالح فى هذه البلاد . وقد ساعده على ذلك ظروف الأدارسة الذين كانوا يسكرون فى طريق الضعف والتفكك ، كما ساعدته ظروف دولة بنى العباس التى انحسر نفوذها عن معظم أنحاء بلاد المغرب . فافريقية كانت تحت حكم الأغالبة الذين أقاموا فيها أسرة حاكمة تتوارث الحكم منذ عام ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ، وقاهرت ومعظم بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) قامت فيها أسرة أباضية حاكمة هى الأسرة الرستمىة منذ عام ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م ، وكذلك سجلماسة قامت فيها دولة صفريّة منذ عام ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م

ولذلك تمكن يونس من أن يفرض نفوذه على كل السوس الأدنى وأن يفرض مذهبه على من خالفه ، فازدهرت دولته واستطاع أن يحكم تامسنا مدة كبيرة بلغت أربعة وأربعين عاما ، حيث توفى وخرج الأمر من بنيّه ، وانتقل الحكم الى بنى ابن عمه معاذ بن اليسع بن صالح ابن طريف ، حيث تولى منهم حكم تامسنا أبو غفير محمد بن معاذ ابن اليسع (٢٧١ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٤ — ٩١٢ م) (١١) .

تولى أبو غفير محمد بن معاذ الحكم بعد أن كان كثير من بلاد تامسنا قد دأب بمذهب الصفريّة الذى فرضه يونس ، وسار أصحاب المذاهب الأخرى من أهل السنة تحت لوائه كما سبق القول ، مما أدى الى اتساع دولة بنى صالح ، ولم يتوان أبو غفير عن العمل على

(١١) المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٢٤

ويلاحظ أن اسم أبى غفير محمد بن معاذ ورد عند ابن حوقل (ص ٨٢) أبو الغفير ، وورد عند البكرى (ص ١٣٦) أبو غفير . محمد ابن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ، وورد عند ابن عذارى (ج ١ ص ٢٢٤) أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ، وورد عند ابن خلدون (ج ٦ ص ٢٠٨) أبو غفير محمد بن اليسع بن صالح ابن طريف .

الحفاظ على هذه الدولة الواسعة وعلى تدعيم أركانها ومحاربة من يتصدى لها من قبائل البربر المجاورة .

يتبين ذلك من رواية البكري الذى قال أن أبا غنير اتجه شمالا لمقاتلة المدن والقبائل الواقعة فى إقليم فاس ، ووصل فى زحفه إلى وادى بهت الذى يتوسط ذلك الإقليم ، حيث قاتل البربر النازلين فى هذا الوادى فى موقعة تعرف بموقعة بهت عجز الإحصاء عن عد من قتل فيها من البربر على يد أبى غنير كما يقول البكري (١٣) وابن عذارى (١٣) .

ونظرا لكثرة عدد القتلى الذين أزهقت أرواحهم على يد جيش أبى غنير ، ونظرا للدمار الذى لحق مدن وادى بهت على يديه ، فقد سجل أحد الشعراء هذا الحدث فى قصيدة طويلة نعى فيها على بنى صالح ما أحدثوه بالبلاد والعباد من خراب وقتل ودمار . وقد اختار البكري بعض أبيات من هذه القصيدة منها (١٤) :

قى قبل التفرق فأخبرنا وقولى وأخبرى خبرا مبينا
هجوم برابر خسروا وضلوا وخابوا لا سقوا ماء معينا
يقولون النبى أبو غنير فأخزى الله أم الكاذبيننا
ألم تسمع ولم نر يوم بهت على آثار خيلهم رنيننا
رنين الباكيات فبين ثكلى (١٥) وعأوية ومسقطه جنيننا

ولم تكن موقعة بهت هى الموقعة الوحيدة التى خاض أبو غنير

(١٢) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٦

(١٣) البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٢٤ ، انظر الخريطة ص ١١ لمعرفة موقع وادى بهت .

(١٤) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٨

(١٥) عند ابن عذارى (ج ١ ص ٢٢٦) : رنين الباكيات بهم تكالى .

غمارها خارج حدود بلاده ، بل انه خاض معركة أخرى أطلق عليها
البكرى اسم وقعة تيمغنس^(١٦) ، وسماها ابن عذارى وقعة تامعزا^(١٧) ،
وذلك نسبة الى مدينة من مدن اليرير ، سواء كان اسمها تيمغنس
أم تامعزا ، وهى مدينة قال عنها البكرى « انها مدينة عظيمة أقام القتل
فى أهلها ثمانية أيام من الخميس الى الخميس حتى شرقت دورهم
ورحابهم وسكنهم بدمائهم منها »^(١٨) ، وقال عنها ابن عذارى أن
أبا غفير « أقام القتل فيها ثلاثة أيام »^(١٩) .

وسواء كان عدد الأيام التى باشر فيها أبو غفير قتل أهل هذه
المدينة سبعة أم ثلاثة ، فان ذلك يدل على مدى القوة التى توافرت
له من فاحية ، ويدل على مدى العنف والشراسة التى تميز بها أولئك
الخوارج من فاحية أخرى ، وهو أمر طبيعى عند قوم يعتبرون مخالفهم
وأبناءهم كفارا يحل قتالهم وقتلهم وسبى ذرائعهم ونساءهم وأخذ أموالهم
إذا لم يدخلوا فى مذهبهم كما هو معروف وكما سبق القول^(٢٠) .

مات أبو غفير بعد أن ملك سبعا وعشرين سنة ، وتولى حكم
بلاد تامسنا بعده ابنه أبو الأنصار عبد الله بن أبى غفير ، وذلك عند
تمام المائة الثالثة ، وحكم مدة طويلة بلغت اثنين وأربعين عاما
(٣٠٠ - ٣٤١ هـ / ٩١٢ - ٩٥٢ م)^(٢١) ، وكان معاصرا بذلك
لعبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى بالأندلس .

(١٦) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٦

(١٧) البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٢٤

(١٨) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٦

(١٩) البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٢٤

(٢٠) انظر : ص ٧٠

(٢١) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، ابن عذارى : نفس
المصدر ، ج ١ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥

ويخبرنا ابن خلدون أن أبا الأنصار كان كثير الدعوة مهاجا عند ملوك عصره (٢٢) ، ويخبرنا البكري وابن عذاري بأنه كان يجمع جنده وحشره في كل عام ويظهر أنه سيقوم بغزو من حوله ، فتخشاه القبائل وترسل هداياها اليه وتطلب مسالته ، وعندما فصله تلك الهدايا واللطائف كان يفرق أصحابه ويعدل عن غزو جيرانه . وظل أبو الأنصار يتبع هذه السياسة طوال سنى حكمه المديدة ، فمأش في هدوء ودعة (٢٣) .

وليس فى ذلك غرابة بعد أن مهد له الحكام السابقون من بنى صالح البلاد وأرسوا له قواعد الحكم وأخضعوا له قبائل تامسنا وكذلك القبائل المحيطة بهم وخاصة من الشمال حتى وادى بهت الذى يتوسط اقليم فاس .

ويبدو أن الحروب التى خاضها حكام تامسنا وخاصة يونس وأبو عفير ضد القبائل والمدن الأخرى التى تقع بين فهر أبى الرقراق الذى يفصل اقليم تامسنا عن اقليم فاس والذى يعتبر الحد الشمالى لبلاد تامسنا ، وبين وادى بهت الذى أشرنا اليه ، والذى يتوسط اقليم فاس ، كانت حروبا دفاعية فى المقام الأول ، اذ أن القبائل المحيطة باقليم تامسنا من هذه الناحية كانت تظهر عداها وكرهيتها لحكام تامسنا بسبب الخلاف فى المذهب وبسبب سياسة بنى صالح فى الاحتفاظ باستقلالهم حتى صاروا كالثشوبة فى جنب الدولة الادريسية وفى جنب من قام بعدها من دول فى بلاد المغرب الأقصى .

وفيهم هذا العدا من قول ابن حوقل أن كثيرا من الناس كانوا فى رباط عند وادى سلا الذى اعتبره نهاية سكنى المسلمين ، فكان هؤلاء

(٢٢) تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٨

(٢٣) البكري : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، ابن عذاري : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥

المرابطون في نظره من المسلمين وعداهم من برغواطة كانوا من الكفرة الذين يجب التصدي لقتالهم ، ومن ثم فقد بالغ في ذكره لعدد المrabطين الذين تصدوا لهم عند وادي سلا فقال انهم كانوا « مائة ألف افسان يزيدون في وقت وينقصون لوقت » (٢٤) .

وطبيعى أن هذا الموقف العدائى من السكان المحيطين لبلاد تامسنا وخاصة من الشمال عند وادي سلا قد دفع بنى صالح الى قتالهم والتسكيل بهم حتى خضعوا لهم وداؤوا لهم بالطاعة ، مما أدى الى اتساع دولتهم حتى وادى بهت في الشمال وحتى آسفى في اقليم دكالة في الجنوب .

وكما قلنا فقد حكم أبو الأنصار مدة طويلة بلغت اثنين وأربعين عاما ، ولما مات دفن في مكان يسمى أمسلاخت وتولى بعده ابنه أبو منصور عيسى بن عبد الله بن أبي عفير (٣٤١ — ٥٣٦٨ هـ / ٩٥٢ — ١٠٧٨ م) الذى كان يبلغ من العمر اثنين وعشرين سنة ، فسار على سياسة أبيه ودان بمنهجه واشتدت شوكته وعظم سلطانه (٢٥) ، ودافت له قبائل المغرب (٢٦) ، واتخذ جيشا قويا فاهزت عساكره الثلاثة آلاف من قبيلة برغواطة وحدها ، وعشرة آلاف من غيرهم من القبائل الأخرى مثل جراوة وزواغة والبرانس ومجكسة ومظفرة ودمر ومطسطة وينسو وإرزيكيت (٢٧) ، واتصل بالحكم المستنصر الخليفة الأموى بالأندلس في عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ، وكان أبوه قد أوصاه بموالاة

(٢٤) صورة الأرض ، ص ٨٢

(٢٥) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٢٥

(٢٦) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٨

(٢٧) المصدر السابق ، نفس الجزء ونفس الصفحة .

صاحب الأندلس حسب العادة والسياسة الثابتة التي اتبعها ملوك
بنى صالح في هذا المضمار منذ أن قامت دولتهم (٢٨) *

ورغم هذه العلاقة الوطيدة التي ربطت بين بنى صالح فى تامسنا
وبنى أمية فى الأندلس فإن الصراع الذى نشب بين الفاطميين وبين
الأمويين حول السيطرة على بلاد المغرب الأقصى ترك ظلاله على هذه
العلاقة فى عهد سيطرة المنصور بن أبى عامر على مقاليد الأمور فى
بلاد الأندلس وحجره على الخليفة الأموى هشام المؤيد . فقد أراد
المنصور بن أبى عامر أن يدعم نفوذه فى بلاد المغرب الأقصى كما دعم
نفوذه فى بلاد الأندلس مستغلا العداء الذى كان قائما بين زفانة التى
كانت تدين بالولاء للأمويين ، وصنهاجة التى كانت تدين بالطاعة
للفاطميين (٢٩) *

وتنفذا لهذه السياسة أرسل المنصور بن أبى عامر القائد جعفر
ابن على الزفانى من الأندلس الى المغرب الأقصى فى عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م
وقلده حكم هذه البلاد ، فنزل جعفر مدينة البصرة ، وحدث خلاف بينه
وبين أخيه يحيى الذى استطاع أن يستميل الجند وأمرأ زفانة ، ولم
يرد جعفر أن ينشب صراع بينه وبين أخيه ، فاتجه جنوبا بمن معه
من جند الأندلس والمغرب ناحية بلاد تامسنا . ولما وصل الى هذه
البلاد لقيه جيش بنى صالح الذى تمكن من هزيمة جعفر هزيمة ساحقة
لدرجة أن هذا القائد لم يكن أمامه الا أن ينجو بنفسه مع قلول
جنده المهزومين ، وعاد أدراجه ولحق بأخيه يحيى فى البصرة حيث
استلغاه المنصور بن أبى عامر الى الأندلس ، فرحل اليها دون أن يتمكن

(٢٨) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٤ ، ١٣٧ ، ابن عذارى :
نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٢٥

(٢٩) المراكشي : نفس المصدر ، ص ١٤ ، ١٦ ، خالد الصوفانى :
تاريخ العرب فى إسبانيا (عصر المنصور الأندلسى) ، دار الكاتب العربى ،
بيروت ، بدون تاريخ ، ص ١٦٠

أو أخوه يحيى الذى بقى فى حكم المغرب من الحاق أى هزيمة
صالح (٣٠) .

وازاء بقاء يحيى بن على الزناتى فى حكم الجزء الشمالى من بلاد
ب الأقصى ، نهض الفاطميون للقضاء على هذا النفوذ الاموى وعلى
: زفانة الحليفة لبنى أمية ، وذلك حتى تخلص لهم هذه البلاد دون
أمية والمنصور بن أبى عامر ، وقامت صنهاجة التى كانت تدين لهم
لاء والطاعة بهذا الدور خير قيام ، فتمكن زعيمها بلقين بن زيرى
مناد الصنهاجى من غزو المغرب فى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م ، انتقاما
، أبيه الذى تم على أيدي زفاته ، وتحقيقا لحلم الفاطميين فى السيطرة
بلاد المغرب الأقصى واقضاء لنفوذ المنصور بن أبى عامر منها (٣١) .

تمكن بلقين من هزيمة زفانة ففرت أمامه وانسحبت الى مدينة سبتة
صنت بها وطلبت مساعدة المنصور بن أبى عامر ، فأرسل جعفرا على
، جيش جرار ، ولما رأى بلقين كثرة عدد جند جعفر ، قرر عدم
قول معه فى قتال واتجه جنوبا الى البصرة فهدم قلعتها ، ثم اتجه الى
إاطة ببلاد تلمسان التى كانت فى ولاء دائم مع حكام الأندلس ،
، زعيمها أبو منصور عيسى بن أبى الأنصار فى قومه من برغواطية
يهم ، ولكن أبا منصور لم يتمكن من صد الصنهاجيين وهزم فى
كة هزيمة منكرة ، وقتل فيها كما قتل عدد كبير من جيشه ، واستطاع
، أن يسبى عددا كبيرا من نسائهم وذرائعهم ، وبعث بهذا السبى
افريقية (٣٢) ، فوصل الى مدينة المنصورية فى عام ٣٧١ هـ / ٩٨١ م
، أهل افريقية من السبى ما لم يره أحد منهم لكثرتهم ، وطيف بهم

(٣٠) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٨ ، ٢٠٩

(٣١) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٣٧ ، ابن خلدون :
المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٩

(٣٢) المصدر السابق ونفس الصفحة ، السلاوى : نفس المصدر ،
١ ص ١٠٤

في المنصورية والقيروان» (٣٣) ، واستولى بلقين على معظم أنحاء بلاد المغرب وكاد يمحو دعوة بني أمية من هذه الأنحاء ، وكانت تصله السجلات من مصر في فاس ، وظل مقيما في هذه البلاد «وأهل سبته منه خائفون وزفاعة مشردون وذلك من سنة ٣٦٨ هـ الى عام ٣٧٣ هـ (٣٤) .

وكانت هذه الضربة التي كالتها الزيرون الصنهاجيون الى بني صالح بداية النهاية لدولتهم التي دخلت مرحلة السقوط التدريجي منذ ذلك الحين .

(٣٣) ابن عداري : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٢٨

(٣٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٧ ، خالد الصوفي : نفس المرجع ، ص ١٦٢

سقوط دولة بنى صالح فى تامسة

بدأت مرحلة السقوط لدولة بنى صالح فى تامسة اثر الهزيمة الساحقة التى تعرضوا لها على يد الصنهاجيين فى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م حيث قتل ملكهم أبو منصور عيسى الذى ذكره ابن عذارى على أنه صالح بن عيسى بن أبى الأتصار ^(٢) . وربما كان صالح هذا هو القائد الفعلى للمعركة ، بينما كان أبوه عيسى هو القائد الأعلى ومليك البلاد ، وكانت المادة فى تلك العصور هى أن يقدم الأب ابنه لقيادة الجند كسبا للخبرة وتمهيدا لتولى الحكم بعد وفاته .

وعلى أى حال فإن عيسى وابنه قتلا فى هذه المعركة التى أصابت دولة بنى صالح فى الصميم للرجة أن ابن خلدون يقول أنه لم يقف على من ملك أمرهم بعد مقتل أبى منصور عيسى ^(٣) . ومع ذلك فإن الدولة ظلت قائمة ، واستمرت برغواطة وبنو صالح فى حكم تامسة رغم أن المصادر لم تشر الى أسماء الحكام الا بعد فترة طويلة من وقوع هزيمة عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م .

ويرجع بقاء بنى صالح فى حكم هذه البلاد الى أن المنصور ابن أبى عامر تمكن من القضاء على النفوذ الفاطمى فى بلاد المغرب الأقصى ، كما تمكن أيضا فى عام ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م من القضاء على دولة الإدارة التى كانت تعطى ولاءها فى عصر ضعفها للفاطميين مرة وللموئيين مرة أخرى ^(٤) فخلت الساحة فى بلاد المغرب الأقصى لأصدقاء الأمويين والذين كانوا يتمثلون فى زناتة وبرغواطة .

(١) ابن خلدون : نفس المصدر ج ٦ ص ٢٠٩

(٢) ابن عذارى : نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٧

(٣) ابن خلدون : نفس المصدر ج ٦ ص ٢١٩

ولما حاول عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر أن يفرض نفوذه كأييه على هذه البلاد اصطدم بقوة برغواطة وحجها للاستقلال والحرية ، فقاتلها وأثنى فيها قتلا وسييا^(٤) . ولكن الأمور في بلاد تامسنا عادت الى طبيعتها بعد أن انتهى عهد العامرين في بلاد الأندلس في عام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م^(٥) ، وبعد أن انتهى عهد الخلافة الأموية أيضا في عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م^(٦) ، مما ترك فراغا سياسيا كبيرا في بلاد المغرب الأقصى .

وقد أعطى هذا الفراغ الفرصة لقبائل زناتة من بسط نفوذها على كثير من أنحاء هذه البلاد ، ومن ثم جاء صدامها مع بني صالح وبرغواطة في تامسنا ، ويمثل هذا الصدام الضربة الثانية التي أثرت بشكل كبير في تاريخ بني صالح في هذه البلاد .

ذلك أن بني يفرن الزناتيين كانوا قد استقلوا بناحية سلا منتهزين فرصة هذه الظروف السياسية التي ألمت ببلاد المغرب الأقصى والأندلس ، واقتطعوا هذه الناحية من عمل زيري بن عطية المغمراوي الذي كان ييسط سلطانه على الجزء الشمالي من بلاد المغرب الأقصى ، وذلك في بداية القرن الخامس للهجرة . وكانت سيطرة بني يفرن الزناتيين على سلا واقترابهم بذلك من مملكة بني صالح اقترابا مباشرا من عوامل الصدام الذي حدث بين الفريقين^(٧) . كما أن اختلاف المذهب بينهم كان سببا آخر في حدوث هذا الصدام .

ذلك أن جمهور بني يفرن ومغراوة وزناتة بصفة عامة كانوا من أهل

(٤) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٠٩ ، السلاوي : نفس المصدر ج ١ ص ١٠٤
(٥) المراكشي : نفس المصدر ، ص ٢٢ ، المقرئ : نفس المصدر ، ص ١٩٨ ، ١٩٩
(٦) المراكشي : نفس المصدر ، ص ٣٢ - ٣٣ ، المقرئ : ج ١ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥
(٧) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٩

السنة والجماعة^(٨) ، بينما كان بنو صالح وبرغواطة على مذهب الصفرية من الخوارج كما عرفنا . ومن ثم اشتعل الصراع بينهما في عام ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م ، وتمكن زعيم بني يفران تميم بن زيري بن يعلى أن يدهر برغواطة وأنها يغلبهم على بلادهم وأن يستوطن ديارهم وينفي من بقي منهم ويقضى على دولتهم ، ويولى من يحكمها من قبله بعد أن أثنى فيهم قتلا وسبيا^(٩) .

ويبدو أن حكم تميم اليفراني الزناتي لبلاد تامسنا لم يستمر طويلا رغم سيرته الحميدة وسلوكه الطيب وشدائته التي قوه بها البكرى^(١٠) ، إذ أنه توفي عام ٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م ، كما يبدو أن قضاءه على بنى صالح وبرغواطة لم يكن قضاء تاما وكاملا بحيث لا تقوم لهم قائمة ، ذلك أن ابن خلدون يقول أن البرغواطين ، رجعوا إلى بلادهم وتولوا حكمها من جديد ، وظلوا على هذا الحال حتى ظهرت دولة جديدة تمكنت من السيطرة على الصحراء وبلاد المغرب الأقصى كلها ، وهى دولة المرابطين التى ظهرت على مسرح الأحداث منذ عام ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م^(١١) .

كان قوام هذه الدولة الفتية قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة من صنهاجة ، وكانت هذه القبائل قد انضوت تحت لواء فقيه مالكى يدعى عبد الله بن ياسين الجزولى وزحفوا تحت قيادته بقيادة زعيم لمتونة أبى بكر بن عمر إلى بلاد تامسنا بعد أن كانوا قد افتتحو الكثير من معاقل السوس الأقصى وجبالى المصامدة وسجلماسة وأغمت ونول الصحراء ، وذلك فى محاولة

(٨) ابن حزم نفس المصدر ص ٤٩٨

(٩) البكرى : نفس المصدر ص ١٤١ ، ابن خلدون : نفس المصدر

ج ١ ص ٢٠٩ ، السلاوى : نفس المصدر ج ١ ص ١٠٤

(١٠) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٤١.

(١١) المصدر السابق ص ١٦٤ ، ابن خلدون : نفس المصدر ج ٦ ص ٢٠٩

منهم للقضاء على برغواطة وعلى سيطانها في تامسنا^(١٢) وعلى دياقتها حيث قيل لعبد الله بن ياسين أن برغواطة مجوس وأهل كفر وضلالة ، فقدم جهادهم على جهاد غيرهم ، وسار اليهم وأمير برغواطة يومئذ أبو حفص عبد الله من ذرية ملك تامسنا أبي منصور عيسى^(١٣) الذي قتله الصنهاجيون في عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م كما سبق القول .

ويبدو أن مقاومة برغواطة للمرابطين كانت شديدة ، ولم تكن قواتها ضعيفة بالقدر الذي تخيله الزعيم العسكري للمرابطين أبو بكر ابن عمر اللمتوني الذي دخل معها في وقائع عديدة « وملاحم عظام مات فيها من الفريقين خلق كثير » ، واستشهد في أحداها صاحب الدعوة المرابطية عبد الله بن ياسين في جمادى الأولى من عام ٤٥١ هـ / يونية ١٠٥٩ م في موضع يسمى كريفلت ، مما جعل المرابطين يصممون على الاستمرار في محاربة برغواطة والنيل منها والقضاء عليها قضاء تاما^(١٤) .

حددت البيعة لأبي بكر بن عمر اللمتوني الذي استأنف الزحف على برغواطة وأثنى فيهم قتلا وسييا حتى تفرقوا في الفياض والقفار واستأصل شأفتهم ، ورجع الباقيون منهم عن عقيدتهم أو عن مذهبهم الذي كانوا عليه منذ قيام دولتهم ، واستطاع أبو بكر بن عمر أن يمحو أثر دعوتهم أو مذهبهم من المغرب ، ولما فرغ من أمرهم وقسم غنائمهم عاد إلى مدينة أغمات التي اتخذها مقرا لرباط جيشه^(١٥) . ولم يلبث أبو بكر

(١٢) البكري : نفس المصدر ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ابن خلدون : نفس المصدر ج ٦ ص ٢٠٩

(١٣) السلاوي : نفس المصدر ج ١ ص ١٠٤

(١٤) البكري : نفس المصدر ص ١٨٧ ، ابن خلدون : نفس المصدر ج ٦ ص ٢٠٩

(١٥) ابن سعيد المغربي : نفس المصدر ، ص ٥٩ ، السلاوي : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٠٥

أن رحل إلى الصحراء في عام ٤٥٣ هـ / ١٠٦٠ م لحدوث نزاع بين قبائلها وترك أمر المغرب الأقصى لابن عمه يوسف بن شاهين (١٦) .

ومع أن السلاوي جعل نهاية دولة بني صالح البرغواطيين على يد أبي بكر بن عمر اللستوني زعيم دولة المرابطين في عام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، إلا أن الحسن الوزان يعطينا رواية أخرى تجعل هذه النهاية على يد يوسف بن تاشفين . وكان يوسف قد مكن لنفسه في بلاد المغرب الأقصى بعد رحيل ابن عمه أبي بكر بن عمر إلى الصحراء ، وافتتح كثيرا من هذه البلاد ، ودعم قفوزه ببناء مدينة مراکش في عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م واتخذها عاصمة له ، فعظم ملكه واشتدت شوكة (١٧) .

والحقيقة أن السلاوي أشار إلى حروب يوسف في بلاد المغرب الأقصى بصفة عامة (١٨) ولم يشر إلى خروبه مع برغواطة بوجه خاص ، وافرد الحسن الوزان الذي عاش قبل السلاوي بعدة قرون برواية مؤداها أن نهاية دولة بني صالح البرغواطيين في تامسنا كانت على يد يوسف بن تاشفين الذي كان قد افرد بحكم بلاد المغرب الأقصى دون ابن عمه أبي بكر بن عمر (١٩) .

والراجح أن برغواطة انتهزت فرصة عودة أبي بكر بن عمر إلى الصحراء في عام ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م فجمعت شتاتها واستأنفت نشاطها السياسي وعاد حكمها إلى بلاد تامسنا وأصبحت شوكة في جنب يوسف ابن تاشفين الذي أراد أن تكون بلاد المغرب الأقصى كلها خالصة له

(١٦) السلاوي : نفس المصدر ج ١ ص ١٠٦

(١٧) القلقشندي : نفس المصدر ص ١٧١

(١٨) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج ١ ص ١٠٦

(١٩) لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٤ ، ١٥ ، الحسن الوزان : وصف إفريقيا ج ١ ص ١٩٥ ، السلاوي : نفس المصدر ج ١ ص ١٠٦

وحده حتى دون ابن عمه الزعيم المبايع من المرابطين كلهم . ولذلك صمم يوسف على القضاء عليها ومحو أثرها من الوجود .

بعد أن اطمأن يوسف على توطيد مركزه في الجزء الجنوبي من المغرب الأقصى وبعد أن بنى مدينة مراكش ، اتجه الى تامسنا للاستيلاء عليها حتى يكتمل نفوذه وسلطانه على كل هذه البلاد ، وفي البداية فضل استخدام أسلوب اللين والدعوة السلمية ، فأرسل عددا من العلماء السنين الى تامسنا يعظون أهلها ويحاولون تحويلهم عن مذهبهم الذي كانوا يعتنقونه وانذى اعتبره الحسن الوزان زندقة ومروقا عن الاسلام (٢٠) جريا وراء ابن حوقل والبكرى .

وكافت محاولة يوسف هدفها أن يعود أهل تامسنا وبرغواطة على وجه الخصوص الى صفوف أهل السنة دون قتال أو حرب (٢١) . ومعروف أن دولة المرابطين قامت على أساس دعوة دينية ترمى الى نشر الاسلام ، وتقيته مما شابه على أيدي البربر ، ورد المظالم وقطع جميع المغارم ، والقضاء على أى مذهب يخالف المذهب المالكي السني . الذي كان المرابطون يتمسكون به أشد تمسك (٢٢) .

وقد وصل هؤلاء العلماء الذين أرسلهم ابن قاشفين الى تامسنا ، واجتمع أهل هذه البلاد في مدينة آفا التي تطل على المحيط الأطلسي والتي تعرف اليوم بالدار البيضاء (٢٣) بزعيمهم أو « صاحب أمرهم لعهد اقراض دولتهم أبو حفص عبد الله من أعقاب سابغ ملوكهم أبي منصور عيسى بن أبي الأخصار عبد الله بن أبي عفير محمد بن معاذ بن اليسع

(٢٠) الحسن الوزان : نفس المصدر ج ١ ص ١٩٥

(٢١) المصدر السابق ، ونفس الجزء والصفحة .

(٢٢) البكرى : نفس المصدر ص ١٦٤

(٢٣) الحسن الوزان : نفس المصدر ج ١ ص ١٩٥

ابن صالح بن طريف^(٢٤) وقرروا اعدام هؤلاء العلماء الوافدين عليهم من قبل يوسف بن تاشفين ، ونفذوا قراراتهم وعبأوا جيشا قوامه خمسون ألف مقاتل ، على أساس أن يطردوا قبيلة لتونة التي تزعم المرابطين من مراكش ومن المنطقة كلها^(٢٥) .

وعندما علم يوسف بن تاشفين بالمتوفى بذلك غضب غضبا شديدا وجمع جيشا عظيما ولم ينتظر حتى يهاجمه البرغواطيون ، وبادر بالزحف اليهم ، فوصل الى تامسنا خلال ثلاثة أيام بعد أن عبر نهر أم الربيع . وعندما رأى جند تامسنا هذا الجيش الزاحف لقتالهم يتقدم حمية وحماسة وتصميما على النيل منهم ، اتابهم الخوف وأخذهم الفرع وعدلوا عن قتاله والتصدى له ، وفروا هاربين عبر نهر أبي الرقاق في اتجاه فاس ، تاركين أهلهم وبلادهم^(٢٦) .

وبذلك دخل يوسف بن تاشفين تامسنا دون قتال ، وأباح لجنده البلاد وسكانها فأضرموا فيها النيران وأصبحت طعمة للنار والدم والنهب والقتل الذي لم ينج منه صغير أو كبير حتى الأطفال الرضع . وظل يوسف مقيما في بلاد تامسنا ثمانية شهور عمل أثناءها على تخريبها حتى لم يبق فيها سوى بعض أطلال لمدها العامرة^(٢٧) .

وقد بلغت الكارثة التي حلت ببلاد تامسنا مداها نتيجة لموقف ملك فاس الذي لم يكن قد خضع بعد للمرابطين والذي كان قد بلغته نية أهل تامسنا في عبور نهر أبي الرقاق واتجاههم الى بلاده ، فعقد هدنة مع قبائل زفافة التي كان معها في حرب ، واتجه نحو النهر المذكور على

(٢٤) ابن خلدون : نفس المصدر ج ٦ ص ٢٠٩

(٢٥) الحسن الوزان : نفس المصدر ج ١ ص ١٩٥

(٢٦) المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة .

(٢٧) المصدر السابق ، ونفس الجزء والصفحة .

رأس جيش عرمرم ، وهناك واجه ملك تامسنا اليأس الذي كانت قواته منهوكة القوى تماما جوعا وذعرا وتقهقرا . ولما حاول هذا الملك عبور النهر كى تنج قواته من المصير المظلم الذى يطاردها على يد المرابطين ، تصدت له قوات فاس ومنعته من العبور ، حينئذ أصاب اليأس القاتل ملك تامسنا وجنده وتحققوا من الهزيمة والفشل ، واضطروا الى اللجوء الى الغابات المجاورة وإلى الصخور الوعرة التى يصعب اجتيازها (٢٨) .

ولم يلبث جيش يوسف بن تاشفين أن وصل الى مواقعهم وأخذ فى مطاردتهم وأحاط بهم ، فأبيد جيش تامسنا إبادة كاملة ، فمنهم من غرق فى النهر ، ومنهم من تردى من أعالي الصخور التى كانوا قد لجأوا إليها فدقت أعناقهم ، ومن استطاع النجاة من الغرق تلقفه المرابطون فجزوا رأسه بالسيف (٢٩) ، وقتلوا مليكهم أبا حفص عبد الله وهو آخر ملوكهم من بنى صالح بن طريف البرغواطى (٣٠) . وأخذ عدد سكان تامسنا يتناقص ، وقدر عدد الهالكين منهم رجالا ونساء وأطفالا بعدد كبير قدره الحسن الوزان بمليون نسمة ، ولما فرغ يوسف بن تاشفين من القضاء على جيش تامسنا عاد أدراجه الى مدينة مراكش كى يعيد تنظيم جيشه للزحف لمهاجمة ملك فاس بعد أن ترك تامسنا مأوى للأسود والذئاب والبوم (٣١) .

وهكذا تم القضاء تماما على دولة بنى صالح وعلى نفوذ برغواطية فى تامسنا بسبب هذه الهجمة المرابطية العنيفة (٣٢) التى دفعت قوات تامسنا الى الفرار حيث حوصرت من الشمال بجيش ملك فاس ومن الجنوب

(٢٨) المصدر السابق ، ونفس الجزء والصفحة .

(٢٩) المصدر السابق ، ونفس الجزء والصفحة .

(٣٠) ابن خلدون : نفس المصدر ج ٦ ص ٢٠٩ .

(٣١) وصف إفريقيا ج ١ ص ١٩٦ .

(٣٢) ابن خلدون : نفس المصدر ج ٦ ص ٢٠٩ .

بجيش المرابطين وأييدت إبادة كاملة كما سبق القول ، كما قضى على مذهبهم الصفرى الذى كانوا يدينون به ، بدليل ما ذكره البكرى فى عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م من أن « جميع بلاد برغواطة اليوم على ملة الاسلام » (٣٣) . ومعنى ذلك أن القضاء على الدولة والمذهب تم فى الفترة ما بين بناء مدينة مراكش فى عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وبين ذلك التاريخ الذى أشار اليه البكرى ، والراجح أن هذا العمل تم بعد بناء هذه المدينة بعام على الأكثر أى فى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م حيث كان يوسف يتوق للتخلص من كل القوى المعارضة والممالك التى كانت تعيش على أرض المغرب الأقصى ومنها بالطبع مملكة بنى صالح فى تامسنا .

وإذا كان ابن تاشفين قد نجح فى القضاء على دولة بنى صالح وعلى جيشهم وعلى آخر ملوكهم ، فإنه لم ينجح فى القضاء على القبائل التى كانت تعيش على أرض هذه الدولة وعلى رأسها برغواطة وزعم الدمار والخراب والقتل الذى ألحقه ابن تاشفين بتامسنا وأهلها . إذ أن سياق الأحداث التى تلت عصر ابن تاشفين يدل على أن برغواطة ومن يدور فى فلكها من قبائل استعادت قوتها مرة أخرى وصارت خطرا يخشى بأسه من جديد .

والدليل على ذلك أن أهل تامسنا تصدوا للموحدين الذين قضوا على دولة المرابطين فى عام ٥٤١ هـ / ١١٥٦ م وأرادوا استكمال سيطرتهم على بلاد المغرب الأقصى فهاجموا برغواطة وتامسنا ثلاث مرات ، أولاها فى عام ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م قبل أن يستولوا على مدينة مراكش عاصمة دولة المرابطين ويقضوا القضاء المبرم على هذه الدولة . وكان عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين قد وجه قواته للاستيلاء على أنحاء المغرب الأقصى ، ومر على سلا وافتتحها واتجه الى مدينة مراكش ، وسرح

الشيخ أبا حفص لغزو برغواطة فأنخن فيهم وعاد للالتحاق بعد المؤمنين حين زحفه على مدينة مراكش قبل أن يتمكن من القضاء على برغواطة (٤) .

وبعد أن سقطت مدينة مراكش في يد عبد المؤمن بن علي في شوال من عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م وتم قتل آخر ملوك المرابطين وزالت دولتهم واستولى الموحدون على جميع بلاد المغرب الأقصى ، خرج عليهم بناحية السوس ثائر من سوية سلا يعرف باسم محمد بن عبد الله بن هود ، وتلقب بالهادي وظهر في رباط مدينة ماسة الساحلية بإقليم السوس الأقصى ، ودعا الناس إلى نفسه فاتبعه كثير من القبائل منها برغواطة وشتى قبائل تامسنا ، واتبعه أيضا أهل سجلماسة ودرعة وقبائل دكالة ورجرجة وهوارة وجميع العرب المقيمون بهذه النواحي . فصرح اليهم عبد المؤمن ابن علي جيشا كاذب نصيبه الهزيمة ، فأرسل جيشا آخر تمكن من هزيمة هذا الثائر وقتله في ذي الحجة من عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م (٣٥) .

ولكن هذه الهزيمة لم تقض على برغواطة وقبائل تامسنا ولا على القبائل الأخرى التي كانت قد دانت بدعوة ابن هود ورأت فيها الخلاص من سيطرة الموحدين . والدليل على ذلك أن أبا حفص قائد جيش الموحدين بعد أن قضى على ابن هود في ماسة عاد إلى مدينة مراكش واستراح فيها أياما ثم خرج غازيا للقائمين بدعوة الثائر الماسي بجبال درن ، فأوقع بأهل نفيس وهيلانة وأخذ طاعتهم ، وعاد إلى مدينة مراكش ثم خرج منها بعد ذلك إلى هسكورة وأوقع بهم وافتتح معاقلمهم وحصونهم ، ثم نهض إلى سجلماسة فاستولى عليها ورجع إلى مدينة مراكش ، ثم خرج منها للمرة الثالثة إلى برغواطة (٣٦) .

ورغم أن الموحدين غزوا برغواطة مرتين من قبل ، إلا أن هذه

(٣٤) ابن خلدون : نفس ج ٦ ص ٢٣٢

(٣٥) المصدر السابق ، ونفس الجزء والصفحة .

(٣٦) المصدر السابق ج ٦ ص ٢٣٣

القبيلة وقبائل تامسنا الأخرى لم تلن قناتها وظلت صامدة أمامهم وقامت بمحاولة للحفاظ على كيائها ومصيرها ، وتصدت هذه المرة للموحدين بكل قوتها ، وتمكنت من هزيمتهم رغم قوتهم وسيطرتهم على أنحاء المغرب الأقصى (٣٧) .

وتتج عن هذه الهزيمة غير المتوقعة أن اضطرت نيران الثورة من جديد ضد الموحدين في بلاد المغرب الأقصى ، فتشجع أهل سبتة وطرودا عامل الموحدين وقتلوا من بها منهم ، وأرسلوا القاضي عياض إلى يحيى بن غافية المسوفي الوالي بالأندلس لمساعدتهم وإرسال وال من قبله إليهم ، فبعث إليهم يحيى بن أبي بكر الصخراوي الذي كان واليا على فاس قبل استيلاء الموحدين عليها (٣٨) .

وبمجرد أن وصل هذا الوالي إلى سبتة اتصل بالقبائل الخارجة على طاعة الموحدين مثل برغواطة ودكالة الذين كانوا قد هزموا الموحدين كما سبق القول . وزحف هذا الوالي من سبتة حتى وصل إلى برغواطة الثائرة ليستعين بها في قتال الموحدين ، ولكن عبد المؤمن بن علي جيش لهم الجيوش وتمكن من هزيمتهم واستئصال شأفتهم في عام ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م ، فأعطوه طاعتهم وتبرأوا من يحيى الصخراوي ، فعفا عنهم واستنقام أمر المغرب الأقصى بكافة فواحيه له ولمن خلفه من الموحدين من بعده (٣٩) .

وهكذا قامت دولة بنى صالح بن طريف في تامسنا بالمغرب الأقصى في عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، وكانت برغواطة هي العمود الفقري لهذه الدولة التي استمرت حوالي قرنين ونصف قرن من الزمان دولة قوية مهابة خطب

(٣٧) المصدر السابق ، ونفس الجزء والصفحة .

(٣٨) المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة

(٣٩) المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة

زدها الكثيرون من حكام الدول المجاورة ، وعقد معها الأمويون بالأندلس أواصر الصداقة والمودة ، ولم ينل من هذه الدولة الا تلك الضربات العنيفة التي تعرضت لها على يد جيوش صنهاجة وجيوش العامين وجيوش تميم بن يفرن الزناتى . وقد مهدت هذه الضربات الطريق أمام جيوش المرابطين القوية كي تقض على دولة بنى صالح وعلى مذهبهم الذى كانوا قد تمسكوا به فى محاولة منهم للاحتفاظ باستقلالهم المذهبى والسياسى .

واذا كانت دولة بنى صالح البرغواطية قد قضى عليها على يد أبى بكر ابن عمر اللمتونى فى عام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م أو على يد ابن عمه يوسف ابن تاشفين فى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، فان برغواطة كقبيلة لم يقض عليها ، وبقيت تدافع عن كيانها ازاء هجمات الدولة الجديدة وهى دولة الموحيدين التى أسقطت دولة المرابطين وحلت محلها فى حكم بلاد المغرب الأقصى ، واستطاعت برغواطة أن تهزم جيوش الموحيدين الذين أخذتهم هذه الهزيمة ، وجعلتهم يبذلون كل جهدهم للقضاء على قوة هذه القبيلة حتى يتسنى لهم حكم جميع بلاد المغرب الأقصى .

وتم للموحيدين ما أرادوا وتلاشت برغواطة كقبيلة ذات نفوذ ولم نعد نسمع لها ذكرا بعد أن قامت بهذا الدور السياسى الهام الذى عرضنا له فى تاريخ تامسنا بصفة خاصة ، وفى تاريخ المغرب الأقصى بصفة عامة تحت قيادة بنى صالح بن طريف البرغواطى وعاشت عدة قرون كدولة لها كيانها ولها حكامها ولها أرضها ولها شعبها ولها جيشها ولها علاقاتها الخارجية ولها نظامها السياسى الذى تمثل فى قيام حكم ملكى وراثى فى أسرة بنى صالح بن طريف امتد على مدى أكثر من ثلاثة قرون .

وقد أشار البكرى المعاصر لهذه الدولة فى أواخر أيامها الى هذا النظام فقال ان بنى صالح بن طريف كانوا ملوكا يتوارثون الحكم ، وأن طريف بن مالك مؤسس هذه الدولة وأول حكامها كان ملكا وكان « أبا

ملوكهم» (٢٤٠) • وتتكرر الإشارة عند البكري الى ملوكية طريف والى أن ابنه صالح كان ملكا ، وأخبر صالح ابنه الياس أنه خارج الى المشرق وسيمود اليهم فى دولة السابع من ملوكهم (٢٤١) • ويصور البكري استيلاء بنى معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف على الحكم بعد وفاة الياس بأنه « استولى على الملك » (٢٤٢) •

وتتوارد اشارات البكري عن بقية حكام بنى صالح بأنه ملوك ويختتم حديثه عن هذه الأسرة الحاكمة بقوله ان « برغواطة لم تزل فى بلادها معلنة بدينها وبنى صالح بن طريف ملوكها الى أن قام فيهم الأمير تميم اليفرنى وذلك بعد عشرين وأربع مائة من الهجرة فغلبهم على بلادهم » (٢٤٣) •

فبنو صالح على هذا النحو كانوا ملوكا فى نظر البكري ، وفى نظر غيره من المؤرخين اللاحقين مثل ابن عذارى الذى أكد ما قاله البكري فى هذا الصدد وأشار الى أن بنى صالح كانوا ملوكا ، والى أنهم كانوا أمراء (٢٤٤) مثلما كان حكام الأندلس فى نظره أمراء أيضا (٢٤٥) • ويؤكد ابن خلدون هذا الأمر فيقول أن ما أقامه بنو صالح البرغواطيون كان دولة (٢٤٦) ، ويرد لفظ الدولة قبل ذلك عند البكري (٢٤٧) ويرد بعد ذلك عند السلاوى (٢٤٨) • والحقيقة أن البرغواطيين المصامدة منذ ما قبل الاسلام وفى صدره

(٢٤٠) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب للبكري ص ١٣٥

(٢٤١) المصدر السابق ونفس الصفحة •

(٢٤٢) المصدر السابق ص ١٣٦

(٢٤٣) المصدر السابق ص ١٤١

(٢٤٤) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٢٣ - ٢٢٦

(٢٤٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٤

(٢٤٦) تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٦

(٢٤٧) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٥

(٢٤٨) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج ١ ص ١٠٣

وقروته الأولى كانوا يتقدمون جميع قبائل المصامدة في بلاد المغرب الأقصى كلها ، وكانت لهم الزعامة على هذه القبائل (٤٩) . ولذلك ليس غريبا أن تكون لهم دولة في الاقليم الذي كانوا يقيمون فيه من أقاليم المغرب الأقصى وهو اقليم تامسنا ، وظلت هذه الدولة قائمة منذ عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م حتى قضى عليها في عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م مما مهد الأمر أمام مصامدة جبل درن (الأطلس) كي يبرزوا على مسرح التاريخ بعد ذلك بحوالى قرن ويتبوأوا عرش زعامة المصامدة وينشئوا دولة قوية في عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م عرفت باسم دولة الموحدين (٥٠) .

وعلى ذلك فإن الكيان السياسى الذى أقامه بنو صالح فى اقليم تامسنا كان دولة لها كل شروط الدولة وأركانها التى أشرفا اليها والتى ظهرت واضحة من خلال حديثنا عن تاريخها عبر الصفحات السابقة ، ولهم تكن تجمعا قبليا كما قال بذلك أصحاب دائرة المعارف الاسلامية (٥١) . ويبدو أن الأمر كان فى البداية حلقا أو تجمعا قبليا تشكل أثناء ثورة البربر من أصحاب ميسرة المطفرى فى عام ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م . وقد أشار السلاوى الى هذه المرحلة فقال ان برغواطة قبائل شتى لا يجمعهم أب واحد ، وإنما هم أخلاط من البربر اجتمعوا الى صالح ابن طريف فى عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م (٥٢) .

وبعد انهيار هذه الثورة والقضاء عليها عاد البربر الى مواقعهم الأولى فى بلاد المغرب الأقصى وأقام بعضهم من مختلف القبائل دولة فى اقليم تامسنا أشار اليها السلاوى أيضا (٥٣) ، وأشار اليها غيره

(٤٩) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٦

(٥٠) المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة .

(٥١) دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٧ ص ٦٧ ، ٧٠ .

(٥٢) الاستقصا لآخبار دول المغرب الأقصى ، ج ١ ص ١٠٣ .

(٥٣) المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة .

من المؤرخين الذين عرضنا لهم من قبل . وكان على رأس هذه الدولة
برغواطة وزعيمها طريف بن مالك الذى كان أول ملوكها ، ولما مات
خلفه فى حكمها ابنه صالح ، وبقي الحكم فى يد بنى صالح يحكمون
هذه المنطقة ملوكا لها حوالى ثلاثة قرون من الزمان ، متخذين النظام
الوراثى فى الحكم مشاهم فى ذلك مثل غيرهم من حكام الدول الاسلامية
المعاصرة لهم ، قائمين بدورهم السياسى فى هذه المنطقة من بلاد المغرب
الأقصى ، هذا الدور الذى عرضنا له ودعّمته عوامل عديدة ، أظهرت
قدرة الدولة وامكانياتها على الصمود والبقاء طوال هذه المدة ، وأظهرت
شيئا من حضارتها وعمراتها .

بعض مظاهر الحضارة في دولة بنى صالح بتامسنا

توافر لاقليم تامسنا امكانيات اقتصادية كبيرة جعلت منه مكانا مناسباً لقيام دولة بنى صالح في هذا الاقليم ، كما أدت هذه الامكانيات الى ازدهار هذه الدولة وصمودها أمام المحن والغزوات التي تعرضت لها ، وساعدتها في القيام بالدور السياسى والعسكرى الذى قامت به وعرضنا له . وتتجلى هذه الامكانيات الاقتصادية في نشاط السكان الذى يشمل عددا من الحرف والمهن مثل الزراعة والصيد والتجارة .

١ - الزراعة :

ازدهرت الزراعة في عصر دولة بنى صالح بتامسنا نتيجة الأمور عديدة منها توافر المياه والأرض الصالحة للزراعة . فبخلاف الأمطار التى كانت تسقط على تامسنا وجد العديد من الأنهار الكبيرة والصغيرة التى وفرت المياه لرى الأودية العديدة التى تحفل بها . ذلك أن دولة تامسنا اشتملت على أحد الأنهار الأربعة الرئيسية الكبرى (١) الموجودة في بلاد المغرب الأقصى ، وهو النهر المعروف باسم أم الربيع (٢)

(١) الأنهار الرئيسية الأربعة في بلاد المغرب الأقصى هي أم الربيع ، وملوية ، وسبو ، ودرعة ، أما الأنهار الصغرى فهي بهت وأبو رفراق وتنسيفت والسوس .

انظر : الحسن الوزان : وصف افريقيا ، ج ١ ص ١٧

(٢) نهر أم الربيع المعروف باسم وادى أم الربيع نهر كبير جدا ينبع من جبال الأطلس عند حدود اقليم تادلا وناحية فاس ، ويجرى عبر سهول أوخسان التى تسمى سهل خنيفرة ، ثم يخترق شعابا ضيقة ويتجه شطر الغرب ليمر عبر سهول بين دكالة وتامسنا الى أن يصب في المحيط الأطلسي قرب مدينة آزمور ، وهذا النهر نهر خرار تمبره المراكب سريع الجريان كثير الانحدار كثير الصخور والجنادل تصب فيه بعض الروافد الصغيرة ، ولا يمكن اجتيازه في فصلى الشتاء والربيع حيث يفيض بالماء ، ويصطاد منه الناس كميات وافرة من

الذى يحيط بتامسنا من الشرق والجنوب . ويقع جنوب هذا النهر
نهر صغير يعرف باسم وادى تنسيفت^(٣) .

أما فى شمالى بلاد تامسنا يقع نهر صغير يعرف باسم أبى الرقراق^(٤) ،
هذا بخلاف ما يوجد فى تامسنا من الأنهار الصغيرة والأصغر . والدليل
على ذلك أن البكرى ذكر نقلا عن رجل من برغواطة أن بلاد تامسنا تحتوى
على أزيد من مائة نهر جارية أعظمها نهر ماسنات الذى يجرى من القبلة
أى من الشرق ، الى الجوف أى الى داخل البلاد ويمتد مسيرة ستة
أيام حتى يصب فى المحيط الأطلسى . ونهر وانسيفن الذى يتصل بنهر

السبك يتغذى به جميع سكان آزمور ، ويصدر منه كميات وفيرة الى
بعض بلدان البحر المتوسط مثل إيطاليا والبرتغال .
انظر : الادريسي : نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٣٧ ، المراكشى : تاريخ
الاندلس المسمى بالمعجب ، ص ٢٠٥ ، الحسن الوزان : وصف افريقيا ،
ج ٢ ص ٢٤٧

(٣) ينبع وادى تنسيفت من جبال درن (الأطلس) كغيره من الأنهار
الأخرى ويتجه الى الشمال ثم الى الغرب مخترقا سهولا واسعة
حتى يصب فى المحيط الأطلسى باقليم آسفى من ناحية دكالة . ويعتبر
هذا النهر من الأنهار التى ليست بالكبيرة ولكنه دائم الجريان ويفيض
رمن الشتاء حتى يصير سيلا لا يبقى ولا يدر ، حتى أنه أطاح ذات
مرة بقنطرة عجيبة البناء متقنة الصنع شيدها عليه مهندسون أندلسيون
جلبهم أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين .
انظر : الادريسي : نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٣٥ ، الحسن الوزان :
وصف افريقيا ، ج ٢ ص ٢٤٥

(٤) ينبع نهر أبى الرقراق من احد الجبال المتفرعة من جبال
الأطلس ، ويمر عبر شعاب وغابات كثيرة ، ثم يخرج بين تلال فى سهل
ليصب فى المحيط الأطلسى بين مدينتى سلا والرباط حيث يكون الحد
الشمالى لاقليم تامسنا أو السوس الأدنى . ويصعب على السفن
دخول هذا النهر الا بدليل محنك من قوم يعرفون بوقاصة ، نسبة الى
سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، والا جنحت السفينة على الرمال ،
ولذلك سهل الدفاع عن سلا والرباط ضد أى هجوم يقع عليهما من
ناحية البحر .

انظر : ابن سعيد : بسط الأرض ، ص ٧٢ ، الحسن الوزان :
وصف افريقيا ، ج ٢ ص ٢٤٧ ، ٢٤٨

سبلا قرب مدينة الرباط^(٥) ، مما يدل على أنه هو النهر الذى تقع عليه قرية مكول . ولم يرد ذكر لهذا النهر ولا لنهر ماسنات عند الادريسي أو الحسن الوزان .

وعلى ذلك فقد توافرت لبلاد تامسنا أنهار عديدة تحف بها أودية واسعة ، كما توافرت لها أيضا سهول ساحلية تمتد بطول الساحل من سلا وتجه جنوبا الى آزمور وآسفى ، وقضرب فى عمق البلاد شرقا فى اتجاه جبال الأطلس . وهذه السهول الساحلية التى تمتد من الساحل الى جبال الأطلس كانت من الأهمية بمكان حتى أن واحدا من الرحالة القدامى أشار اليها وقال عنها انها من أشهر وأجود سهول المغرب الأقصى^(٦) ، كما أشار الى ذلك أحد المؤرخين المحدثين وقال ان سهل شاوية - وهو الاسم الحديث الذى ورد لأول مرة عند الحسن الوزان لاقليم تامسنا^(٧) - من أشهر سهول المغرب الأقصى بجانب سهل دكالة وعبدة^(٨) .

ولا شك أن الأودية العديدة التى أشرنا اليها والتى تخرقها الأنهار التى تحدثنا عنها والتى تشتمل عليها بلاد تامسنا ، وكذلك السهول الساحلية التى أشرنا اليها ، أعطت هذا الاقليم امكانيات زراعية واسعة . يتبين ذلك من خلال وصف الجغرافيين والرحالة المسلمين الذين زاروا هذا الاقليم وتحدثوا عن المدن والقرى التى احتوى عليها .

فرغم الدمار والخراب الذى ألم بهذه المنطقة من جراء النزاعات السياسية وقيام الدول واتهامها ، فإن الصورة التى رسموها صورة مشرقة رغم الألم والحسرة التى كانت تتاب بعضهم من حين لآخر حينما

(٥) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٤١

(٦) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ٧٢

(٧) المصدر السابق ، ج ١ ص ٧٣

(٨) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص ١٦

كانوا يرون بعض المدن وقد خربت ، والبساتين وقد افدثت ، والمزارع وقد تحولت الى غابات وأشجار غير مثمرة (٩) .

وربما ازدهار الزراعة في بلاد تامسنا من الاشارات العديدة التي وردت عند الادريسي الذي أشار الى وفرة المحاصيل الزراعية وخاصة الحبوب مثل القمح الذي كان في غاية الرخص (١٠) ، والذي بلغ من الوفرة حدا كبيرا حتى صار الناس أحيانا يستبدلون حمل جمل كبير منه بنعلين (١١) ، وذلك في احدى مدن تامسنا وهي مدينة النخيلة التي تقع وسط هذه البلاد بين الرباط ومراكش ، والتي كان سكانها في غاية الغنى لاتساع أراضيهم التي كانت تشتمل من كل جانب على خمسين ميلا من السهول التي كان يزرع فيها محصول القمح وغيره من المحاصيل الأخرى (١٢) .

وتكثر الاشارات عن توافر القمح أو الحنطة في بلاد تامسنا فيذكر الادريسي أن قرية أم الربيع التي تقع في جنوب الوادي الذي سمي باسمها وهو وادي أم الربيع والذي سبق الحديث عنه ، بها « حنطة في نهاية الرخص » (١٣) كما يذكر الحسن الوزان أن أهل مدينة بولعوان التي تقع على ضفة النهر في منتصف الطريق بين فاس ومراكش ، كانوا من أغنى الناس وأثراهم ، اذ كان لكل واحد منهم حوالي مائة زوج من الثيران ، وعنده محصولات زراعية تبلغ حوالي ثلاثة آلاف حمل جمل ، منها ألف حمل من القمح الذي كان الأعراب يشترونه منهم ويتزودون به للعام كله (١٤) .

(٩) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ .

٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ .

(١٠) نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٣٧ .

(١١) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩٩ .

(١٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٩ .

(١٣) نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٣٧ .

(١٤) وصف إفريقيا ، ج ١ ص ١٥٥ .

وقد أشار الادريسي إلى غير القمح من الزروع والثمار التي اشتهرت بها تامسنا مثل القطن والكروم والشعير والحمص حتى أصبح الطعام رخيصا جدا (١٥) . كما أشار الحسن الوزان الى وفرة أشجار التين التي كانت تحيط بأطلال مدينة زرقة حتى أصبحت هذه المدينة تبدو من بعيد وكأنها غابة ، كما كانت تكثر في أرباضها أيضا أشجار التين وأشجار الدوم وغير ذلك من الأشجار والثمار نظرا لخصوبة أراضيها ولكثرة عيونها وجداولها . وقد تعرضت هذه المدينة للخراب والدمار أثناء حروب بني صالح مع معارضيهم وخصومهم ، وسكنها أعراب تامسنا وزرعوا أرضها ، وكافوا يحصلون منها على غلات طيبة تبلغ أحيانا خمسين ضعف ما زرعوا (١٦) .

وكذلك كانت تكثر المروج الخضراء حول مدينة آفزا (الدار البيضاء) حتى قيل عنها أنها مدينة في غاية الحضارة والازدهار ، لأن أرضها خصبة تصلح لزراعة جميع أنواع الحبوب ، وتمثل في الواقع أجمل منظر في افريقيا كلها ، اذ يحيط بها من جميع جهاتها عدا الغرب الذي اعتبره الحسن الوزان شمالا ، سهل فسيح يمتد مسافة تبلغ نحو ثمانين ميلا (١٧) .

ويشير الحسن الوزان الى ما كانت تمثله هذه المدينة من حضارة وازدهار زراعى قبل أن يدمرها البرتغاليون ، فيقول في لوحة وأسى : « كم كان في داخل آفزا من بساتين وكروم ما زالت لحد الآن تجنى منها كميات عظيمة من الثمار ، لا سيما البطيخ والخيار والتي يبدأ نضجها في منتصف ابريل . وقد اعتاد الناس أن يحملوا هذه الثمار الى فاس ، لأن نضجها فيه يتأخر » (١٨) .

(١٥) نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠
(١٦) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٠٥ - ٢٠٦
(١٧) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٦ - ١٩٧
(١٨) وصف افريقيا ، ج ١ ص ١٩٧

وعندما يتحدث الادريسي الذي عاصر نهاية قبيلة برعواطة على يد عبد المؤمن بن علي زعيم الموحدين ، والحسن الوزان الذي كتب عن هذه النهاية ، عن غير ذلك من المدن والقرى والآودية والسهول الخصبة التي جادت فيها المحاصيل التي أشرنا إليها ، فانهما يشيران أيضا الى الجداول والعيون الكثيرة الدفاقة بالماء ، وإلى كثرة البساتين والحدائق والزروع والمواشي والابل والبقر والغنم الذي كان يكفي حاجة الناس ويفيض ويصدر هذا الفائض الى الخارج (١٩) .

٢ - الصيد :

وبجانب مهنة الزراعة التي اشتغل بها أهل تامسنا ، كانت هناك أيضا مهنة الصيد ، حيث قام كثير منهم بصيد طيور النعام التي كانت وفيرة العدد في كثير من أنحاء تامسنا . وقد أشار الادريسي الى هذه الوفرة في ناحية تقع تجاه قرية من قرى تامسنا تسمى أنقال ، فقال انه كان يوجد فيها عدد من طيور النعام لا يعد ولا يحصى ، وكان أهل هذه الناحية والنواحي الأخرى المحيطة بها يقومون باصطياد هذه الطيور على متن خيولهم فيحصلون منها على عدد قليل أو كثير ، ويحملون بيضها الذي لا يحاط به كثرة الى جميع البلاد ، وإن كان أكله غير صحي لأنه يفسد المعدة . وأما لحوم النعام فكانوا ينتفعون بها كما كانوا ينتفعون بشحومها في العلاج من الصمم ومن سائر الأوجاع البدنية (٢٠) .

ونظرا لوجود غابات كثيرة في بلاد تامسنا فقد عاشت في هذه الغابات حيوانات مقترسة كالأسود وغيرها . وكان أهالي تامسنا يقومون بصيد هذه الأسود دون خوف منها . ويقول الادريسي أن قرية من قرى تامسنا تسمى اكسس يوجد بها « بيت متخذ لصيد الأسود

(١٩) الادريسي : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، الحسن

الوزان ، ج ١ ص ١٩٨ - ٢٠٦

(٢٠) نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٨

حتى انه ربما صيد منها فى الجمعة الثلاثة والأربعة والأكثر من ذلك
والأقل» (٢١) . كما يشير الى طريقة صيد هذه الأسود فيقول « أن
الصيادين كانوا يلقونها بأنفسهم عراة يلقون أكسيثهم على أذرعهم
ويمسكون معهم قنات من شوك السدرة ، وسكاكينهم فى أيديهم
لا غير » . ولذلك هابتهم الأسود وتجنبت طرقهم ومسالكهم (٢٢) .
وبجانب صيد النعام والأسود كان الأهالى يصطادون الأسماك
التي كانت توجد بوفرة فى الأنهار التي توجد فى بلادهم وكذلك فى
مياه المحيط الأطلسى المطل على ساحل هذه البلاد . والمثال على ذلك
هو نهر صغير يسمى نهر أسمير الذى تقع عليه مدينة شالة القديمة
وسلا الحديثة . فقد وجد فى هذا النهر الصغير وحده أنواع كثيرة
من السمك وضروب عديدة من الحيتان حتى أصبح الحوت بها لا يكاد
يباع ولا يشتري لكثرة وفرة (٢٣) .

وقد سبقت الإشارة الى أن نهر أم الربيع الذى يحيط بتامسنا
من الشرق والجنوب وهو من أكبر أنهار بلاد المغرب الأقصى ، يصطاد
منه الناس كميات وافرة من السمك يتغذى به جميع سكان مدينة أزموور،
ويفيض عن حاجتهم ويصدر منه كميات وفيرة الى بعض بلدان البحر
المتوسط مثل إيطاليا والبرتغال (٢٤) . وقد اشتهرت مياه أزموور بوجود
كميات كبيرة من نوع من السمك يسمى الشابل كانوا يصطادونه
ويتغذون بلحمه ، أما شحمه الوفير الذى يتميز به هذا النوع من
السمك فقد كانوا يستخدمونه فى الإضاءة بدل الزيت الذى لا يوجد
فى بلادهم (٢٥) .

(٢١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٨

(٢٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٧

(٢٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٩

(٢٤) انظر ، هامش ٢ ص ١١٢

(٢٥) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٥٧

وبخلاف الثروة الزراعية والنباتية والحيوانية والسمكية الوفيرة التي تميزت بها بلاد تامسنا ، فإنها اشتملت أيضا على بعض المعادن وخاصة معدن الحديد الذي كان يوجد ويستخرج بكثرة من واد يقع قرب إحدى مدین تامسنا تسمى أدندون ، كما كان يوجد أيضا في مكان بتامسنا يسمى إسنتار يقع بين سلا ومراكش بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي (٢٦) .

وقد تسبب وجود هذا المعدن في بعض نواحي تامسنا الأخرى في إنشاء بعض المدن ، مثل مدينة « معدن عوام » التي بناها بعد انتهاء عصر بنی صالح أحد أمناء الخليفة الموحدى عبد المؤمن على ضفة نهر أبی الرقراق بعد أن لاحظ وجود منجم حديد هناك يتردد الناس عليه كثير (٢٧) .

٣ - التجارة :

أدت وفرة الزروع والثمار والمحاصيل والماشية والحيوانات والأسماك الى قيام تجارة داخلية وخارجية مزدهرة . أما التجارة الداخلية فقد تميزت بأسواقها النافقة التي كان يؤمها عدد كبير من الناس والتجار حيث كانوا يبيعون ويشتررون ويتبادلون السلع والمحصولات .

(٢٦) أدندون مدينة صغيرة مبنية بين تلال على بعد نحو ٢٥ ميلا من الأطلس و ٢٥ ميلا من مدينة النخيلة . وقد دمرت هذه المدينة أثناء الحروب التي قام بها ملوك بنی صالح لفرض مذهبهم على أهلها ولم يبق منها الا آثار قليلة كأسس الجدران وبعض السورى المنهارة . انظر : الحسن الوزان : وصف افريقيا ، ج ١ ص ١٩٩ ، المراكشى : تاريخ الاندلس المسمى بالعجب ، ص ٢٠٤ .

انظر ، الحسن الوزان : وصف افريقيا ، ج ١ ص ١٩٩ .
(٢٧) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .
ظلت مدينة معدن عوام في غاية التحضر وال عمران طوال حكم الموحدين مزدانة بمنازل ومساجد وفنادق جميلة ، ولكنها خربت عند سقوط دولة الموحدين وقيام دولة المرينيين التي اعقبتها ، إذ دمرها يعقوب بن عبد الحق المرينى أثناء زحفه على مراكش في عام ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م .
انظر : الحسن الوزان ، ج ١ ص ٢٠٤ ، هامش ١٦ نفس الصفحة .

والمثال على ذلك هو سوق مدينة النخيلة التى أشرنا إليها والتي لا زال مكانها معروفا بهذا الاسم حتى اليوم جنوبى مدينة الرباط على بعد حوالى أربعين كيلو مترا . اذ كان يقام فى هذه المدينة كل سنة سوق يشهد إليها الرحال من جميع نواحي وبلاد تامسنا^(٢٨) ، مما أدى الى غنى أهلها واتساع ثرواتهم كما سبق القول .

ويشير الادريسي الى سوق احدى قرى تامسنا وهى قرية مكول التى تقع شمال وادى أم الربيع على بعد مرحلة من أقفال ، ويقول ان هذه القرية كالحصن الكبير عامرة بالبربر ، ولها سوق نافقة بما يجلب إليها من جميع المتاجر والسلع التى يحتاج إليها أهلها^(٢٩) .

أما التجارة الخارجية لدولة بتى صالح فى تامسنا فقد ازدهرت ازدهارا كبيرا مع جميع البلدان المجاورة سواء داخل بلاد المغرب الأقصى أم خارج هذه البلاد وخاصة مع الأندلس . وقد راجت تجارة تامسنا مع الأندلس بالذات لسببين « السبب الأول هو قيام علاقات مودة وصداقة ربطت بين حكام الدولتين سبقت الإشارة إليها^(٣٠) . والسبب الثانى هو وفرة الموانئ الصالحة لرسو السفن والتي كانت تقع على ساحل تامسنا الطويل الذى يبدأ فى الشمال من سلا وينتهى فى الجنوب الى مدينة آسفى .

وقد استقبلت هذه الموانئ السفن القادمة من الأندلس وبادلتها السلع والمتاجر مما نتج عنه غنى وثراء وافر الأهالى تامسنا أشار اليه الادريسي فى حديثه عن هذه الموانئ . فقال عز ميثاء سلا أن أهلها كانوا على ثراء عظيم بسبب النشاط التجارى الذى كانوا يمارسونه مع التجار الوافدين اليهم بحرا من اشبيلية وسائر المدن الأندلسية .

(٢٨) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ،

هامش ١٠ ص ١٩٨

(٢٩) نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٣٨

(٣٠) انظر : ص ٦٤ - ٦٧

وكانت السفن الأندلسية التى ترد الى سلا لا تستطيع الرسو أمامها فى البحر ، لأن مرساها مكشوف ، ولذلك كانت تدخل وادى أسير الذى سبقت الإشارة اليه والذى تقع عليه من ناحية الجنوب مدينة شالة القديمة ، ومن الشمال مدينة سلا الحديثة ، يساعدها فى ذلك المد والجزر الذى يدخل هذا الوادى مرتين فى اليوم ، فمع المد كانت تدخل السفن الى الوادى ومع الجزر كانت تخرج منه الى المحيط الأطلسى (٣١) .

وبسبب هذا النشاط التجارى ازدهرت مدينة سلا ازدهارا كبيرا فكانت منازلها تتزين بالفسيفساء وأعمدة الرخام ، أما مساجدها فقد بنيت بطريقة غاية فى الجمال والزخرفة واطشرت دكاينها تحت أروقة كبيرة جميلة ، مما يدل على أنها بلغت قدرا كبيرا من الترف والبذخ والتقدم الحضارى الواضح ، ولم يكن ذلك الا بفضل موقعها وبفضل مينائها الذى كان مهبطا للتجار الأجانب من مختلف الجنسيات من جنوبيين وبنادقة والجليز وفلامانديين ، بخلاف الأندلسيين الذين أشرفا اليهم ، مما جعل هذا الميناء ميناء ليس لتامسنا وحدها بل لاقليم فاس أيضا (٣٢) .

وقد سبق الحديث عن النشاط التجارى الكبير الذى كان قائما بين بلاد تامسنا وبين بلاد الأندلس ، وعن ميناء فضالة الذى يقع الى الجنوب من ميناء سلا والذى كانت ترد اليه السفن الأندلسية وغيرها من سفن البلاد الأوربية فتحمل الحنطة والشعير والفول والحمص والغنم والماعز والبقر (٣٣) . وقد وقع جنوب هذا الميناء ميناء آخر أكثر أهمية هو ميناء آتفا التى سبق الحديث عنها وعن ازدهار حضارتها . وآتفا من المدن القديمة التى كانت موجودة فى بلاد

(٣١) نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٣٩

(٣٢) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٠٧ - ٢٠٨

(٣٣) انظر ، ص ٦٧

تامسنا قبل ظهور الاسلام ، وهى من بناء الرومان وتقع على بعد نحو ستين ميلا من جبال الأطلس ، ونحو ستين ميلا من مدينة آزموور التى تقع فى جنوبها^(٣٤) . وكانت السفن تأتى الى هذا الميناء وتحمل منه الحنطة والشعير^(٣٥) .

ويذكر الادريسي وابن سعيد المغربى عددا آخر من المراسى أو الموانى التى تقع بين هذا الميناء وبين ميناء آسفى . مثال ذلك مرسى مازيفن (أمازيغان) الذى يبعد عن آففا بخمسة وستين ميلا والذى تحمل منه السفن القمح الى سبته وغيرها ، ومرسى الغيط الذى يبعد عن المرسى السابق بشايفن ميلا ، ويقول الادريسي عن المرسى الأخير أنه مرسى حبين تصل اليه المراكب فتخرج منه محملة بالحنطة والشعير ، وتتصل به دكالة ، وهى إحدى قبائل مصمودة التى كانت تسكن هذه المنطقة أو هذا الاقليم الذى تسمى باسمها والذى كان يقع الى الجنوب من اقليم تامسنا ، ولذلك كانت دكالة على صلات تجارية مع اخوانهم من بنى صالح البرغواطيين المصامدة^(٣٦) .

وبين المينائين السابقين وهما مينائى مازيفن والغيط ، يوجد ميناء هام آخر هو ميناء آزموور الذى لم يذكره الادريسي وذكره ابن سعيد المغربى كما ذكره الحسن الوزان وجعله يقع فى اقليم دكالة المصمودية^(٣٧) . وقد كان هذا الميناء ضمن مملكة تامسنا أيام بنى صالح والذى امتدت أراضيها فى عهدهم الى هذا الميناء وإلى ميناء آخر يقع جنوبه هو ميناء آسفى الذى يعتبر آخر الموانى والذى تنتهى به مملكة تامسنا .

(٣٤) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩٦

(٣٥) الادريسي : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٤٠

(٣٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ابن سعيد : نفس

المصدر ، ص ٧١

(٣٧) ابن سعيد المغربى : بسط الأرض ، ص ٧١ ، الحسن الوزان :

وصف افريقيا ، ج ١ ص ١٥٧ - ١٥٩

وقد أشار الادريسي الى الظروف التى أدت الى تسمية هذا الميناء بهذا الاسم والتى تحدثنا عنها^(٣٨)، وأضاف الى ذلك فى مكان آخر بأنه كان « فيما سلف آخر مرسى تصل اليه المراكب ، فأما الآن فهي تجوزه بأكثر من أربعة مجار . . . والمراكب تحمل منه أوساقها فى وقت السفر وسكون حركة البحر المظلم »^(٣٩) .

ونتيجة لتعدد وكثرة الموانى الصالحة لرسو السفن كما رأينا ، ازدهرت بلاد تامسنا وراجت تجارتها سواء مع الدول الخارجية أو مع الممالك التى قامت بجوارها وحولها فى بلاد المغرب الأقصى . وقد سبقت الإشارة الى تجارتها مع الأندلس ومع فاس ومع سجلماسة ومع سكان الصحراء^(٤٠) ، مما أدى الى ازدهارها وازدياد عمرائها وكثرة مدنها وقراها .

٤ - ازدهار العمران والحضارة فى تامسنا :

يتبين هذا الازدهار من حديثنا عن المدن والموانى الساحلية التى أشرفا اليها مثل سلا ، وفضالة ، وآفيا ، ومازيغن ، والغيط ، وآزمور ، وآسفى ، وكذلك من حديثنا عن المدن الداخلية التى أشرفنا اليها أثناء حديثنا عن الثروات الزراعية والنباتية والحيوانية والمعدنية ، مثل مدينة النخيلة ومدينة أدندون وقرية أفتال وأكسيس .

وبخلاف هذه المدن الساحلية والداخلية هناك عدد وأفر من المدن والقرى الأخرى ضمتها بلاد تامسنا . يتبين ذلك من قول الحسن الوزان أنه كان بتامسنا « نحو أربعين مدينة وثلاثمائة قصر يسكنها عدد من قبائل البربر »^(٤١) . من هذه المدن مدينة تسمى أمسلاخت أشار اليها

(٣٨) انظر ، ص ٦٧

(٣٩) نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٤٠

(٤٠) انظر ، ص ٦٤ ، ٦٦ - ٦٧

(٤١) وصف افريقيا ، ج ١ ص ١٩٤

البكرى الذى عاصر نهاية دولة بنى صالح وقال إن أحد ملوكهم وهو عبد الله أبو الأنصار دفن فى هذه المدينة فى عام ٣٤١هـ / ٩٥٢م (٤٢).

وقد ذكر الادريسي والحسن الوزان عددا من المدن والقرى الأخرى لعلها كانت ضمن هذا العدد الذى ذكره الحسن الوزان ، منها مدينة تامسنا التى كانت تقع على وادى أم الربيع والتى سُمى بها إقليم تامسنا ، وقد ازدهمت هذه المدينة بقبائل شتى من البربر منها يرغواطة ومطاطة وبنو تسلت وبنو أويقمران وزقارة وبعض من زفافة وبنو يجفش . وقد اشتهرت هذه القبائل بالفروسية وكان ذلك سببا من أسباب قيام مملكة بنى صالح واستمرارها هذه المدة الطويلة (٤٣) .

كما وقعت على نهر أم الربيع قرية أم الربيع التى تسمى باسمها وادى أم الربيع والتى سبقت الإشارة إليها والتى اشتهرت بزراعة القمح والقطاني والقطن والكمون ، وبترية الماشية حتى كثرت ألبانها وسمنها وخيراتها (٤٤)

ومن قرية أم الربيع حتى مرسى فضالة تقع سلسلة من القرى منها قرية ايفيسل التى تقع شمال وادى أم الربيع ، وكانت قرية حسنة بها عيون كثيرة دفاقة بالماء الذى ينبع بين صخور صلبة والذى كانوا يسقون منه زروعهم ومواشيهم (٤٥) . وقرية أئقال التى تبعد عن القرية السابقة بمرحلة ، ثم قرية مكول التى تبعد عن أئقال بمرحلة أيضا وتقع على أبطح ويتصل بها فحوص يقال له فحوص خراز طوله اثنا عشر ميلا لا ماء به . وقد اشتهرت بسوقها النافقة التى كانت تجلب إليها المتاجر والسلع الكثيرة (٤٦) .

(٤٢) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٧

(٤٣) الادريسي : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٣٦ - ٢٣٧

(٤٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٧

(٤٥) المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة .

(٤٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٨

وبخلاف هذه القرى هناك عدد آخر من المدن العامرة اشتملت عليها بلاد تامسنا ، منها مدينة قديمة تسمى شالة ، وكانت تقع على بعد ميلين من المحيط الأطلسى على ضفة نهر اسمير الذى يتصل الآن بمدينة سلا الحديثة ، وعلى بعد ميل واحد من مدينة الرباط الحالية التى تقع فى إقليم تامسنا . ومدينة شالة من بناء الرومان وظلت مدينة مزدهرة فى عهد بنى صالح حتى وقعت الحروب بينهم وبين معارضيه فاصابها الخراب والدمار ، ويتصل بما بقى منها من مباني عمارات وفيرة وزروع ومواش كثيرة لأهل سلا القريية منها (٤٧) .

وقد صارت هذه المدينة بعد أن عمرها الموحدون مدفا للملوكهم منذ عهد المنصور الموحدى الذى أمر ببناء أسوارها وشيد فيها زاوية فاخرة ، وقصرا لسكنى جنوده ، وجامعا فى غاية الروعة والجمال مع قاعة يدعى الزخرف مزينة بالرخام المنحوت والفسيفساء ، والنوافذ ذات الزجاج الملون ، وأوصى أن يقبر فى تلك القاعة . وبعد وفاته نقل جثمانه من مدينة مراكش ودفن فيها ، واحتفظ ملوك هذه الدولة بهذا التقليد فصاروا يقبرون فى هذه القاعة ، وسار على ذلك ملوك بنى مرين فى عهد ازدهار دولتهم (٤٨) .

ومن المدن الزاهرة فى عهد بنى صالح مدينة تغت أو تقيت أو تكييت ، وهى مدينة صغيرة من بناء البربر تقع على ضفة أم الربيع فى ملتقى الطريق المؤدى من تادلا الى فاس ، والطريق الذى يخترق جبال الأطلس وينفذ الى الصحراء . وكان سكان هذه الصحراء من البربر يأتون عبر هذا الطريق الى تغت لشراء ما يلزمهم من القمح الذى كانوا يكثر فى هذه المدينة ، ولذلك اتعشت أحوالها التجارية نظرا لوقوعها على هذين الطريقين اللذين كانا معبرا للتجارة ،

(٤٧) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، الحسن الوزان :

نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٠٣

(٤٨) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٠٣

فتألفت حضارتها وازداد سكانها وكثر عمرانها • ولكن الخراب بما لبث أن أصابها نتيجة للحروب التي قام بها بنو صالح مع معارضيتهم من السكان ، ثم عاد إليها العمران بعد مدة طويلة ، غير أنها لم تعد الا قرية صغيرة يستخدمها الأعراب كمخزن لحبوبهم التي كانوا يكلون حراستها الى السكان • وكان هؤلاء السكان يحسنون استقبال جميع الغرباء الذين يملكون بمدينتهم وخاصة التجار الذين كانوا يدفعون لهم رسوما مالية نظير ما يحملونه من بضائع وأقمشة^(٤٩) •

وغير مدينة تغيت هناك مدينة أخرى تسمى عين الحلوف ، وهي من المدن القديمة وتقع على رافد صغير يصب في المحيط الأطلسي يسمى نهر نيفيخ الذي يدعى في مجراه الأعلى باسم نهر (دير) • ولا تبعد هذه المدينة عن مدينة المنصورة التي بناها المنصور الموحدى ملك مراکش والتي تقع الى الشمال منها على نفس النهر المشار اليه ، وعلى بعد ميلين من المحيط ونحو خمسة وعشرين ميلا من الرباط^(٥٠) •

وهذه المدينة مبنية فى سهل توجد فيه بعض أشجار الغبيراء وبعض الأشجار الشوكية الأخرى التي تعطى ثمارا مستديرة تشبه العناب الا أنها صفراء اللون ، نواتها أكبر من نواة الزيتون ومذاق لبها غير مستحسن ، وتحيط بها مستنقعات تكثر فيها السلاحف البرية والمائية • ولم يذكر أحد من المؤرخين الأفاارقة هذه المدينة لقلة أهميتها^(٥١) •

ومن مدن تامسنا أيضا مدينة تاغية ، وهي مدينة قديمة بناها البربر بين جبال الأطلس ، مساكنها رديئة البناء ، وأراضيها الزراعية هزيلة وعرة قليلة الانتاج ، ولذلك لا يزرع القمح فيها الا قليلا ، وإن كان

(٤٩) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٩ - ٢٠٠

(٥٠) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٨ ، هامش ٩ ص ١٩٨ ،

ص ٢٠٠ - ٢٠١

(٥١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٠ - ٢٠١

يكثُر فيها الماعز ونحل العسل ، وتتميز بغاباتها الرائعة المحيطة بها والتي يسكنها كثير من الأسود^(٥٢) .

أما مدينة زرفة فهي من المدن القديمة التي أسسها البربر أيضا في إقليم تامسنا في سهل فسيح وجميل جدا حيث يوجد الكثير من الجداول والعيون ، ويحيط بأطلالها عدد وفير من أشجار التين وغير ذلك من الأشجار المثمرة . كما اشتهرت بأراضيها الخصبة التي كانت تجود فيها زراعة القمح الذي كان أهلها يخصصون منه كميات وفيرة . غير أن الدمار لحق بهذه المدينة نتيجة للحروب التي نشبت بين بني صالح وخصومهم^(٥٣) .

ويقع على ضفة نهر أم الربيع الجنوبية عدد من المدن ، منها مدينة السبيت التي كانت تخضع لأعراب دكالة وتنتج أراضيها الزراعية المحيطة بها كثيرا من القمح والعسل^(٥٤) . ومدينة قرغا التي تبعد عن آزموور بنحو ثلاثين ميلا ، وكانت مدينة أهلة بالسكان وتخضع هي الأخرى لأعراب دكالة^(٥٥) . ومدينة بولعوان التي تقع على ضفة النهر فوق منتصف الطريق بين فاس ومراكش ، وكان أهلها من أغنى الناس وأكثرهم ثراء نتيجة لمحصول القمح الوفير الذي كانت تنتجه هذه المدينة وتصدره للبلدان المجاورة وخاصة أعراب الصحراء^(٥٦) . يضاف إلى ذلك مدن داخلية أخرى مثل مدينة قنط^(٥٧) ، ومدينة مائة بير^(٥٨) ، ومدينة قيط^(٥٩) ، ومدينة مرامر^(٦٠) .

(٥٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٤ - ٢٠٥

(٥٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٥ - ٢٠٦

(٥٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٤

(٥٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٥

(٥٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٥

(٥٧) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٢

(٥٨) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٣

(٥٩) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٢

(٦٠) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٩

وهكذا احتوت بلاد تامسنا على عبيد وافى من المدن والقرى ، وبطبيعة الحال فاقنا لم نذكر الا المدن والقرى التى كانت موجودة فى عهد بنى صالح البرغواطيين ، ولم تتعرض للمدن التى بنيت بعد ذلك . ومع أن الحسن الوزان أشار الى أن مدن تامسنا بلغت أربعين مدينة وثلاثمائة قصر كما سبق القول ، الا أن المصادر لم تشر الى أسماء كل هذه المدن ولم تتحدث عنها فى تفصيل كبير . ومع ذلك فإن عدد القرى والمدن الذى ذكرناه عدد وثير يدل على تقدم العمران وازدهار الحضارة فى عصر بنى صالح فى تامسنا .

وكما رأينا فقد اشتهرت هذه المدن بمكائنها الزراعية والحيوانية والسمكية والمعدنية ، مما جعلها هدفا للتجار الذين قصدوها من كافة المدن والبلدان المجاورة ، ومن بلدان الأندلس وغيرها من البلاد الأوروبية ، ساعد على ذلك حسن موقعها وكثرة موانئها وكثرة مسالكها ، وعدالة حكمها ، مما أدى الى ازدياد ثروتها وغنى أهلها وانتشار الأمن فى ربوعها .

وكان لذلك أثره فى ازدياد عمرانها وتألق حضارتها ، وأثره أيضا فى استمرار دولة بنى صالح فى حكم هذه المنطقة الهامة من بلاد المغرب الأقصى لأكثر من ثلاثة قرون من الزمان ، ولم يقض على هذه الدولة الا تلك الضربات المتتالية التى تعرضت لها والتى كان آخرها تلك الضربة التى وجهها المرابطون لها فى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، مما أدى الى انهيارها كدولة ، ولكنها لم تقض على برغواطة كقبيلة حيث كان لها دورها فيما بعد أمام الموحدين الذين هاجموها بعد ذلك بحوالى قرن من الزمان .

وهكذا أدت دولة بنى صالح دورها السياسى والحضارى فى هذه البقعة من بلاد المغرب الأقصى ، وهو دور كان فى حاجة الى من يزيل عنه سمة التجاهل والعموض ، ويبرزه أمام القراء والدارسين . ونرجو أن نكون قد وفقنا ، وما التوفيق الا من الله ، عليه تنوكل واليه ننيب .

خاتمة

يمكننا بعد استعراضنا التاريخ السياسى والحضارى لدولة بنى صالح فى تامسنا بالمغرب الأقصى أن نذكر بعض النتائج التى قرّبت على هذا الدور ، وهى نتائج عديدة ، منها أن أهل تامسنا من قبائل برغواطة ومصمودة ومطماطة وزناتة وصنهاجة وغيرها من القبائل الأخرى التى سكنت هذا الإقليم ، كانت قد اعتنقت الاسلام على يد الفاتحين العرب ، فبعض هذه القبائل اعتنقته على يد عقبة بن نافع النهري ، وبعضها الآخر اعتنقته على يد موسى بن نصير وعلى يد من أرسلهم من الدعاة الى هذا الإقليم ، وكذلك على يد الدعاة الذين أرسلهم الخليفة الأموى عمر ابن عبد العزيز . واستكملت هذه الحركة على عهد الأدارسة الذين كانوا يحكموا ودعاة فى نفس الوقت .

وعلى ذلك فإن بنى صالح وقومهم من برغواطة كانوا مسلمين مثلهم مثل غيرهم من أهالى بلاد المغرب الأقصى ، ولم يرتقبوا عن الاسلام بعد ذلك ، وما أتوا به من ديانة قيل عنها أنها مخالفة للإسلام لم تكن ديانة ، وإنما كانت مذهبا من مذاهب الخوارج ، وهو المذهب الصفرى الذى كان قد اعتنقه كبيرهم ومؤسس دولتهم وهو طريف بن مالك ، واستمر أبناؤه من بعده يدينون بهذا المذهب الذى كان يعتبره المالكية من أهل السنة مذهبا يرمى بصاحبه فى هاوية الكفر والضلالة ، ومن ثم دمعوا هؤلاء القوم بهذه الصفة .

ولم ترد هذه الصفة الا عند ابن حوقل الشيعى الهوى ، وعنه أخذ اليعربى المالكى السنى ، ولم يرد هذا القول بالردة وادعاء التوبة عند

غيرهما من المؤرخين والجغرافيين والرحالة المعاصرين لهذه الدولة التي امتد عمرها طويلا حتى بلغ أكثر من ثلاثة قرون من الزمان ، مما جعلنا وبعد مناقشة مستفيضة نذهب الى القول بأن القوم كانوا على الاسلام وكانوا على مذهب الصفرية من الخوارج لأسباب ذكرناها وفصلنا فيها القول تفضيلا .

ومن النتائج الأخرى التي يمكن الاشارة اليها هي أن بنى صالح لم يكونوا زعماء قبائل فقط وانما كانوا ملوكا توارثوا الحكم والسلطان في دولة أقاموها في تامسنا منذ عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م واستمروا يحكمونها حتى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، وكان الحكم متوارثا في هذه الدولة ، يرثه الأبناء عن الآباء وخاصة في أولاد صالح بن طريف بن مالك ، وظلت سلسلة ملوكهم متصلة حتى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م . وخلال هذه الفترة قام بنو صالح بالتوسع في المناطق المحيطة بهم حتى وصلوا شمالا الى وادي بهت قرب فاس ، ووصلوا جنوبا الى میناء آسفى ، مستغلين في ذلك ضعف دولة الإدارة وتفكك الأسرة الحاكمة لهذه الدولة ، وبذلك اتسعت دولتهم وصارت خطرا على القوى المجاورة ، ومن هنا جاء الصدام الذي وقع بينهم وبين هذه القوى .

وعلى ذلك فإن الهجمات والغزوات التي تعرض لها بنو صالح لم تكن بسبب عقيدة دينية قيل انهم ابتدعوها وادعوها ، فلم تكن الحروب التي قام بها ضدهم الزييريون أو الزناتيون أو المرابطون حروبا من أجل الدين ، وانما كانت حروبا سياسية ، بمعنى أن هذه القوى لم تصطدم ببنى صالح من أجل تحويلهم الى الاسلام أو اعادتهم اليهم ، وأنهم كانوا مسلمين فعلا ، وانما كانت بهدف استعادة السيطرة على كل أنحاء المغرب الأقصى والقضاء على ما فيه من دول أو كيانات سياسية معارضة ، وكان بنو صالح من أشد وأقوى هذه الكيانات ، حتى انهم هزموا المرابطين مرة والموحدين مرات .

ونتيجة أخرى وأخيرة ، وهى أن بنى صالح لم يكتفوا بتقويمهم على أنفسهم فى إقليمهم الذى أنشأوا فيه دولتهم ، وإنما اتصلوا بغيرهم من القوى المجاورة مثل الأندلس وحكام سجلماسة وسكان الصحراء ، والأمويين فى الأندلس ، وتبادلوا معهم التجارة والبعثات الدبلوماسية ، مما أدى الى ازدهار دولتهم والى كثرة مدنها حتى بلغت أكثر من أربعين مدينة بخلاف عدد هائل من القرى والضياح والبساتين التى ازدهمت بها تامسنا والتى أنتجت كثيرا من المحاصيل والسلع التى فاضت عن أهلها وصدرت الى الدول المجاورة سواء فى المغرب أم فى الأندلس وأوربا ، مما يدل على دور حضارى وسياسى كبير قام به بنو صالح كان جديرا بالاشارة والذكر . وإن كنا قد فعلنا أو وفقنا فلا نبغى من وراء ذلك إلا رضا العلى القدير ، فعليه وحده قصد السبيل ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

بنو صالح في تلمسنا

١ - طرف

(١٢٥ - ١٣١ هـ / ٧٤٣ - ٧٤٨ م)

٢ - صالح

(١٣١ - ١٧٨ هـ / ٧٤٨ - ٧٩٤ م)

اليسع

٣ - الياس

(١٧٨ - ٢٢٨ هـ / ٧٩٤ - ٨٤٢ م)

معاذ

٤ - يونس

(٢٢٨ - ٢٧١ هـ / ٨٤٢ - ٨٨٤ م)

٥ - أبو غفير محمد

(٢٧١ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٤ - ٩١٢ م)

٦ - أبو الأنصار عبد الله

(٣٠٠ - ٣٤١ هـ / ٩١٢ - ٩٥٢ م)

٧ - أبو منصور عيسى

(٣٤١ - ٣٦٨ هـ / ٩٥٢ - ٩٧٨ م)

أبو حفص عبد الله

(قتل عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م)

المصادر والمراجع

١ - المصادر العربية القديمة

الادريسي (ت ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م) : أبو عبد الله محمد بن عبد الله
ابن ادريس الحمودي الحسنى المعروف بالشريف الادريسي *

١ - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، جزءان ، عالم الكتب ،
بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م *

الاصطخرى (توفي قبل عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) : أبو اسحاق ابراهيم
ابن محمد المعروف بالكرخي *

٢ - مسالك الممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، مصر ،
١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م *

البغدادى (ت ٤٣٩ هـ / ١٠٣٧ م) : عبد القاهر بن طاهر البغدادى *

٣ - الفرق بين الفرق ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة
الخامسة ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م *

البكرى (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) : أبو عبد الله بن عبد العزيز *

٤ - المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر ١٣٢٩ هـ /
١٩١١ م *

البلاذرى (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) : أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر
البغدادى *

٥ - فتوح البلدان ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، الطبعة الأولى
١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م *

الجزائري (قرن ٨ هـ / ١٤ م) : أبو الحسن علي *

٦ — زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، الجزائر ١٣٤٠ هـ / ١٩٢٢ م.

ابن حزم (٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م) أبو محمد علي بن أحمد *

٧ — جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،

١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

٨ — الفصل في الملل والأهواء والنحل ، تحقيق د. محمد إبراهيم

نصر ، د. عبد الرحمن عميرة ، عكاظ للنشر والتوزيع ،

الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٣ م

الحسن الوزان (٨٨٨ - ٩٥٧ هـ / ١٤٨٣ - ١٥٥٠ م) : الحسن

ابن محمد الوزان القاسي المعروف باسم ليو الافريقي *

٩ — وصف افريقيا ، جزآن في مجلد ، ترجمة محمد حجي ، محمد

الأخضر ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية

١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

الحميري (قرن ٩ هـ / ١٥ م) : محمد عبد الله بن عبد المنعم الحميري *

١٠ — صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في

خير الأقطار ، نشر ليفي بروفنسال ، مطبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م .

ابن حوقل (٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) : أبو القاسم محمد بن علي النصيبی *

١١ — كتاب صورة الأرض (المسالك والممالك) ، منشورات دار

مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

ابن خرداذبة (ت حوالي عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) : أبو القاسم عبيد الله
ابن عبد الله •

١٢ — المسالك والممالك ، مكتبة المشي ، بغداد ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م •
ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) : عبد الرحمن بن محمد •

١٣ — تاريخ ابن خلدون (العبر والمبتدأ والخير) ، الجزء الرابع
والسادس ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت ، بدون
تاريخ •

الريق القيرواني (قرن ٥ هـ / ١١ م) : أبو اسحاق ابراهيم بن القاسم •
١٤ — تاريخ افريقية والمغرب ، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي ، نشر
رفيق السقطي ، تونس ، بدون تاريخ •

أبو زكريا (ت ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م) : أبو زكريا يحيى بن أبي بكر •
١٥ — سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكريا ، تحقيق
اسماعيل العربي ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، الطبعة
الثانية ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م •

ابن سعيد المغربي (ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م)
١٦ — بسط الأرض في الطول والعرض ، تحقيق خوان قرنيط
خينيس ، طبع تطوان بالمغرب ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م •

السلوى (١٣١٥ هـ / ١٨٩٥ م) : أحمد بن خالد الناصري •

١٧ — الاستقصا الأخبار دول المغرب الأقصى ، الجزء الأول ، طبعة
القاهرة ١٣١٢ هـ / ١٨٩٨ م •

الطبرى (ت ٣١٠ هـ / ١٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير .
١٨ — تاريخ الطبرى (تاريخ الأمم والملوك) ، الجزء السابع ،
تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، مصر ،
١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م) : أبو القاسم عبد الرحمن
ابن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشى المصرى .
١٩ — فتوح مصر وأخبارها ، ليدن ، ١٣٣٩ هـ / ١٩٢٠ م .

ابن عذارى المراكشى (ق ٧ هـ / ١٣ م) : أبو عبد الله محمد .
٢٠ — البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الأول ،
تحقيق ومراجعة ج . س . كولان ، لينى بروفنسال ، دار
الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد بن على .
٢١ — قلائد الجمان فى التعريف بعرب الزمان ، تحقيق ابراهيم
الاييارى ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، الطبعة الثانية ،
١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

ابن القوطية القرطبى (ت ٣٦٧ هـ / ١٩٨٠ م) : محمد بن عمر بن
عبد العزيز .

٢٢ — تاريخ افتتاح الأندلس ، مجريط ، ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م .
لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ / ١٢٧٤ م) :

٢٣ — الحلال الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، تونس ، الطبعة
الأولى ١٣٤٨ هـ / ١٩٢٩ م .

المراكشى (ت ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م) : عبد الواحد بن على التميمى .
٢٤ — تاريخ الأندلس المسمى المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ،
المطبعة الجمالية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م .

المسعودى (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) : أبو الحسن على بن الحسين بن على .
٢٥ — مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الأول ، دار الكتاب
اللبنانى ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

المقدسى (ت ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م) : محمد بن أحمد بن أبى بكر الشامى
المقدسى المعروف بالبشارى .
٢٦ — أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، دار احياء التراث العربى ،
بيروت ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

المقرئ (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) : أحمد بن محمد التلمسانى .
٢٧ — نصح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، الجزء الأول ، المطبعة
الجزيرية ، الطبعة الأولى ، مصر ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٤ م .

مجهول :

٢٨ — أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها ، تحقيق ابراهيم
الايبارى ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة ، دار الكتاب اللبنانى ،
بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

اليقوبى (ت ٢٧٢ هـ / ٨٩٥ م) : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب
ابن واضح الكاتب العباسى المعروف باليعقوبى .

٢٩ — صفة المغرب ، مأخوذ من كتاب المعروف باسم البلدان ،
طبعة بريل ١٢٦٧ هـ / ١٨٥٠ م .

٢ - المراجع العربية الحديثة

أحمد شلبي : (دكتور)

٣٠ - موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، الجزء الرابع ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٨٤ م .

السيد عبد العزيز سالم : (دكتور)

٣١ - تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس (من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة) مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .

جمال الدين سرور : (دكتور)

٣٢ - الحياة السياسية فى الدولة العربية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

حسن ابراهيم حسن : (دكتور)

٣٣ - تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، الجزء الثانى ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .
٣٤ - تاريخ الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة بدون تاريخ .

حسن محمود : (دكتور)

٣٥ - الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

حسين مؤنس : (دكتور)

٣٦ — فجر الأندلس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ،
بدون تاريخ •

خالد الصوفى : (دكتور)

٣٧ — تاريخ العرب فى أسبانيا (عصر المنصور الأندلسى) ، دار
الكتاب العربى ، بيروت ، بدون تاريخ •
٣٨ — دائرة المعارف الإسلامية ، الجزء السابع ، طبعة كتاب الشعب ،
القاهرة ، بدون تاريخ •

زامبور :

٣٩ — معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ترجمة د. زكى محمد
حسن ، د. حسن محمود وآخرون ، دار الرائد العربى ، بيروت
١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م •

شكيب أرسلان :

٤٠ — الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية ، الجزء الأول
منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ •

عبد الرحمن على الحجى : (دكتور)

٤١ — التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط قرطبة ،
(٩٢ — ٨٩٧ هـ / ٧١١ — ١٤٩٢ م) ، دار القلم ، بيروت ،
دار القلم ، الكويت ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٣٦ هـ / ١٩٧٦ م •

محمد أسعد طلس :

٤٢ — تاريخ الأمة العربية : عصر الاتساق (تاريخ بني أمية) ،
دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ،
هـ / ١٩٥٨ م .

محمد بن عبد القادر الجزائري :

٤٣ — تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ، دار اليقظة
العربية للتأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٤ هـ /
١٩٦٤ م .

محمود شيت خطاب :

٤٤ — قادة فتح المغرب العربي ، الجزء الثاني ، دار الفتح للطباعة
والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

فهرس

الصفحة

٥	مقدمة
٩	١ - الاطار الجغرافى لدولة بنى صالح فى اقليم تامسنا
١٦	٢ - فتح بلاد تامسنا وتحول أهلها الى الاسلام
٢٩	٣ - نشأة دولة بنى صالح فى تامسنا
٢٩	- طريف بن مالك
٢٩	أصله
٣٥	جهوده فى فتح الأندلس
٤١	دوره فى ثورة البربر الصفرية
٤٥	اقامته للدولة برغواطة فى تامسنا
٤٨	صالح بن طريف
٤٩	الديانة التى نسبت اليه
٥٢	مناقشة أمر هذه الديانة
٧٠	مذهب بنى صالح وبرغواطة هو المذهب الصفرى الخارجى
٨٦	٤ - ازدهار دولة بنى صالح وتوسعها :
٨٧	- يونس بن صالح بن طريف وجهوده التوسعية
٨٩	- أبو عفير محمد بن معاذ بن اليسع وجهوده التوسعية
٩١	- أبو الأنصار عبد الله بن أبى عفير ومحافظة على حدود دولته
	- أبو منصور عيسى بن عبد الله أبى الأنصار وقوته
	العسكرية واتصاله بالحكم المستنصر ، ومقتله على يد
٩٣	جيوش الصنهاجيين

